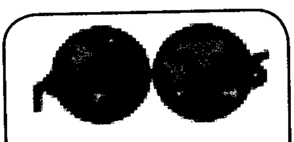


المحمل وأيامه..

عرفه عبده على

سـبحتك يا حـاج فيها تلت لولـى
صلى ضهر الجمعه فى حرم الرسولى
يـا حمـام الحمـا داير فـوج راسـه
يا حليـم ياربـى تـرده لنـاسـه
فوطتك يا حـاج بخمسـه اشـتراها
فوج جبـل عرفـات رجـد فى هـواها
يا جمل يا جمل اذا جبت لى أحـبابى
اعلفك يا جمل بسمسم وسكر جلابى
يا بشـير الهنـا يا رايـح بـلادى
جـول لأبوى العـزيز يزوج عتـابى

من تراثنا الشعبى
فى أغانى الحج المصاحبة
لقافلة المحمل المصـرى



رقم ٥٧٥

١٠ أكتوبر ٢٠١٢

يصدر كل شهر
عن
دار أخبار اليوم
٦شارع الصحافة
القاهرة
تليفون:٢٥٩٤٨٢٢٣
تليفاكس:٢٥٧٨٤٤٤٤

الإخراج الفنى

شـــكرى رشـــدى

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع خارج مصر

سوريا ١٥٠ ليرة ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢,٢٥ دينار ـ الكويت ١ دينار ـ السعودية ١٢ ريال ـ الامارات ١٢ درهم ـ البحرين ١,٢٠٠ دينار ـ سلطنة عمان ١,٢ ريال ـ تونس ٣ دينار ـ المغرب ٣٥ درهم ـ اليمن ٥٠ ريال ـ فلسطين ٢,٥ دولار ـ لندن ٢,٥ ج ك ـ امريكا ٥ دولار ـ استراليا ٥ دولار استرالى ـ سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولار
اتحاد البريد الافريقى واوروبا	٤١ دولار
امريكا وكندا	٤٧ دولار
باقى دول العالم	٦٢ دولار

العنوان على الإنترنت

www.dar.akhbarelyom.org.eg/issuse/?mag=k

البريد الالكترونى

ketaebalyom@gmail.com

هذا الكتاب .. لماذا؟

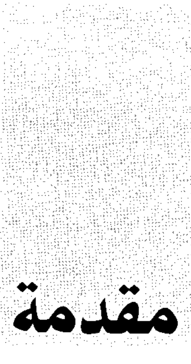
مع الحالة الأقتصادية الصعبة التى تعيشها مصر فى الوقت الحالى كان لنا ان نذكر الأجيال الشابة ان هذه الفترة جملة إعتراضية فى تاريخ مصر وستعود لمصر ريادتها وثراؤها، وويعد المحمل الذى كانت تسيره مصر الى مكة المكرمة والمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام خير دليل على ما كانت عليه مصر المحروسة من رخاء وايادى بيضاء على الجميع، وكان مايصرف على المحمل وقافلة الحج «مائة وعشرون الف دينار» ويقدم المال للأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة وكذلك للتكية المصرية فى كل منهما ولأهل المدينتين حبا فى اهل الأراضى المقدسة وتعظيما لشعائر الله، ونسعد ان نقدم لقراء كتاب اليوم هذه الأنشودة الرائعة التى خطها لنا الكاتب الكبير عرفه عبده على فى كتابه» المحمل وأيامه.. لنستعيد جانب مضىء من تاريخنا وليوقن كل مصرى ان مصر ستظل شامخة مرفوعة الرأس رغم بعض الجمل الإعتراضية التى تمر بها.

ثناء أبوالحمد

١٠ اكتوبر ٢٠١٢



الاحتفال بدوران المحمل بالقاهرة عام ١٩٠٠



مقدمة

فى رحلة الحج، يشعر المسلم بحقيقة الأمة التى دعا إليها القرآن الكريم، وحينما يلتقى المسلمون من شتى بقاع الأرض، ترتقى قيم التسامح والتواد والتواصل، وتنمحى الحدود والقيود، ولا يعلوسوى الإنتماء إلى الأمة الواحدة ويصبح الإختلاف العرقى والثقافى والمذهبى: دليل التنوع والحيوية الذى يمثل ذروة سمات الرؤية الإسلامية للكون والحياة.

وما من مسلم إلا ويدعوالله أن يحقق أمنيته بأداء الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن يملئ ناظريه برؤية البيت العتيق ويستلم بيده الحجر الأسعد ويصلى خلف مقام إبراهيم ويزور مثوى خاتم المرسلين فى المدينة المنورة، فالشوق إلى الكعبة المشرفة والأماكن المقدسة يمثلها وهى نائية، كما يمثلها وهى غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق وما يعانيه من مخاطر، فإذا أجمعهم الله بحرمه الآمن تلقوه مسرورين مستبشرين، فتغتسل القلوب من أدرانها، وتغتسل الكلمات مما علق بها من غبار وتتحد اللغة بالروح وتتقطر المفردات سماحة، فى نفس اللحظة التى أدخلتهم عالم الأخوة الإسلامية المفعم بشتى المعانى والمشاعر.

والمدينتان المقدستان «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة» مدينتان

فريدتان لهما مع الأمكنة فلسفة لا تتضح سوى فى موسم الحج.. ولهما مع كل زائر موعد ومع كل حاج حكاية، القلوب المؤمنة على النزوع إلى هذه المشاهد المقدسة، فإذا بها تأخذ بمجامع القلوب، ولا يفارقونها إلا أسفاً وفى النية تكرار الوفادة إليها وكأنهم لم يكابدوا شوقاً، ولا نصباً..!

ونستعيد من ذاكرة التاريخ ذكريات حافلة للمحمل المصرى - الأشهر - ودرة ركب الحج المصرى وكل ما كان يحيط به من ضجيج عذب محبب، فى أيام مشهودة كانت ترتج لها القاهرة: «دوران المحمل».. «طلعة المحمل».. «نزلة المحمل».. وجموع المودعين تحاول لمس «الكسوة الشريفة» و«كسوة الحجرة النبوية» تبركاً.. وتنسم عطر الماضى فى ذكريات يختلط فيها الوعى بالمخيلة عن «مصطبة المحمل» و«جمل المحمل» و«شيخ المحمل» و«أمير الحج».. ودرب الحج المصرى.. وتتردد فى سمع الزمان كل الحكايات التى لا تنتهى عن واحد من أبرز مشاهد تراثنا الشعبى «المحمل المصرى» وذكريات رحلة العمر!

عرفة عبده على

كسوة الكعبة المشرفة
فى ذاكرة التاريخ


صورة نادرة لإلباس الكعبة المعظمة كسوتها الجديدة عام ١٨٩٦



« الكسوة الشريفة » .. من أهم مظاهر التبجيل والتشريف لبيت الله الحرام، ويرتبط تاريخ الكسوة بتاريخ الكعبة نفسها التى زادها الله شرفاً وتعظيماً، ولها أعظم الأثر عند كافة المسلمين تاريخاً وعقيدة، فهى أول بيت وضع للناس ومن دخله كان آمناً ...





المحمل المصري عام ١٨٨٤

ولقد أختلف المؤرخون فى أول من كسا الكعبة فى الجاهلية إلا أنهم أجمعوا بأن الكعبة كانت تكس بالعديد من الكسوات منها ثياب حمر مخططة يمانية تعرف بالوصايل، ومنها ثياب تنسب إلى قبيلة من همدان تعرف بالثياب المعافرية وهناك ثياب رقيقة الملمس تسمى بالملاء أوبرود يمانية تجمع خيوطها بعد عزلها وتشد ثم تصبغ وتنسج تسمى بالعصب، وهناك ثياب خيوط نسجها من الشعر الغليظ تعرف باسم المسوح ويروى أن أول من كسا الكعبة هو« تبع الحميرى « فقد ذكر الأزرقى أنه « أول من كسا الكعبة كسوة كاملة.... فكساها الانطاع ثم... الوصائل... « وهوالذى جعل للكعبة باباً ثم أسدل عليه ستراً وأنشد شعراً:

وكسونا البيت الذى حرم الله

مــلاءً معضـــداً وبـــــروداً

كما كسيت الكعبة الشريفة فى الجاهلية بمطارف الخز الأخضر والأصفر شقاق شعـر ونمــارق عراقية.

ويقال أن أبى ربيعة بن عبد الله المخـزومى كان يكسوها فـى كل سنة كسوة مخططة يمانيـة الأصل تعرف باسم الحبرة.

وورد فى كتب التاريخ أسماء نسبت إليها عادة اكساء الكعبة قبل أن

يكسوها تبع منهم النبى إسماعيل وعدنان بن خالد بن جعفر بن كلاب ويقال أنه « أول من كسا الكعبـة بالديباج.... وجد لطيمة يحمل البز ووجد فيها انماطاً فعلقها على الكعبـة «.

ولـم تقتصر عادة إكساء الكعبة على الرجال فقد لعبت المرأة العربية دوراً لا ينكر فى هـذا المجال منذ الجاهلية وصفحات التاريخ تحفظ لنا أسماء العديد من النساء وما خلدنه من أعمال مجيدة ومنهن نتيلة بنت جناب بن كليب المعروفة بـ « أم العباس بن عبد المطلب، كانت قد كست الكعبة بالديباج « وسبب ذلك أنها ضلت ولدها « ضرار « فنذرت إن وجدته لتكسون الكعبة وتحقق رجائها فوفت بنذرها.

الكسوة فى العصر الإسلامى

أشـرق نور الإسلام وأتجه المسلمون إلى الكعبة أشرف وأنبل مكان يؤدون الصلاة يومياً فيه ويحجون مرة كل عام « من استطاع « ويطوفون بالبيت العتيق.

وأستمـر المسلمون على ما كان أجدادهم عليه ومن سبقهم قبل الإسلام فى إكساء الكعبة وكتب التاريخ تزخر بأسماء من قام بإكساء الكعبة مبتدئة بالرسول الكريم إذ يروى أنه (ص) كسا الكعبة ثياباً يمانية وينفق عليها من بيت مال المسلمين وحرص من جاء بعد الرسول (ص) على إرسال الكسوإلى الكعبة، فالخليفة أبوبكر (رضى الله عنه) كسا الكعبة بكساء لا نعرف نوعه، ثم كساها الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بكسوة سنوية تنسج من القباطى المصرية المصنوعة فى مصر وينفق عليها من بيت مال المسلمين وكان يأمر بنزع الكسوة القديمة فى كل سنة ويقسمها على الحجاج وسار الخليفة عثمان (رضى الله عنه) على نفس المنوال إلا أنه رأى أن تباع الكسوات القديمة وتنفق أثمانها فى سبيل الله.

أمـــا فى العصر الأموى فقد كان الخليفة معاوية يكسوالكعبة مرتين فى السنة الأولى من نسيج القباطى فى نهاية شهر رمضان والثانية من الديباج فى اليوم العاشر من محرم، ويروى القلقشندى أن شيبة بن عثمان سادن الكعبة أيام معاوية كان قد استأذن معاوية بتخفيف الكعبة مما عليها من كسوات قديمة بعضها يعود إلى الجاهلية فأذن له معاوية وطلب منه أن يطيب جدرانها بالروائح العطرة « الخلوق » ففعل ثم قسم الكسوات القديمة على أهل مكة للتبرك بها.

لقــد لعب العباسيون دوراً كبيراً فى تطوير صناعة النسيج وإنتاج أنواع متعددة من المنسوجات العراقية يتم نسجها فى دور الطراز الخاصة ودور الطراز العامة فى مدينة دار السلام وغيرها من مراكز النسيج العراقية ومما لا شك فيه إن عادة إرسال كسوة الكعبة كان لها الفضل الكبير فى تطوير بعض المنسوجات العراقية وكانت دور الطراز فى بغداد تحرص على نسج المنسوجات الخاصة بكسوة الكعبة، فالخليفة المهدى سنة ١٦٠هـ كان قد كسا الكعبة بكسوة حملها معه من بغداد فى موسم الحج وقد أبدى له سدنة الكعبة خوفهم من انهيار جدران الكعبة لكثرة ما عليها من الكسوات فما كان منه إلا أن أمر بأن ترفع جميع ما عليها من الكسوات ويقتصر على الكسوة الجديدة التى حملها معه، وقيل أنه حمل معه ثلاث كسوات كانت من نسيج القباطى والخز والديباج.

أمـــا المأمون سنة ٢٠٦ هـ فقد كسا الكعبة بثلاث كسوات الأولى من نسيج الديباج الأحمر فى يوم التروية ثم القباطى فى بداية شهر رجب والثالثة فى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان تكون من نسيج الديباج الأبيض.

يتضــح مما تقدم الدور السياسى الذى لعبته كسوة الكعبة إضافة إلى

دورها الفنى فاهتمام الخلفاء العباسيين بإرسال الكسوة كل شهرين أوثلاثة يدل دلالة واضحة على مدى قوة مركزهم واهتمامهم بكسب رضا الناس عن طريق العناية بالكعبة...

فـــى عام ٣٥٨ هـ تمركزت القوة الإسلامية فى مدينة القاهرة على يد الفواطم وحدث التنافس بينهم وبين العباسيين فى معظم المجالات السياسية والاجتماعية كان من أبرزها استيلائهم على الحجاز ثم إرسال كسوة الكعبة ففى سنة ٣٨١ هـ كسيت الكعبة من مصر بكسوة بيضاء ثم استبدلوها بكسوة سوداء، وفى عهد الحاكم منصور سنة ٣٩٧ هـ كسيت الكعبة بالقباطى المصرى، ثم أرسلت الكسوة من مصر أيضاً فى سنة ٤٢٣ هـ من قبل الظاهر لإعزاز دين الله والى مصر، وفى عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ) يرسم لنا الرحالة ناصر خسروصورة واضحة لصناعة مصر فى هذه الفترة وأبرزها صناعة النسيج وأنواعه ثم يشير إلى كسوة الكعبة بقوله: « وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد لأنه يرسلها مرتين كل سنة ». وكثيراً ما كانت تهدى كسوات الكعبة من مراكز العباسية أوالفاطمية ففى سنة ٤٦٦ هـ كسيت الكعبة بكسوة بيضاء من عمل الهند وفى هذه السنة أيضاً حمل السلطان محمد بن سبكتكين كسوة من الديباج الأصفر.

ولـــم يرد فى الروايات السابقة وصفاً لكسوة الكعبة إلا أن ابن جبير فى رحلته يعطينا وصفاً كاملاً لها فى أيامه فى القرن السادس الهجرى.

وفـــى سنة ٦٤٤ هـ هبت عاصفة شديدة على مدينة مكة أدت إلى تمزيق كسوتها وبقيت الكعبة بدون كسوة لمدة واحد وعشرين يوماً فكساها شيخ الحرم (العفيف منصور بن منعة البغدادى) بكسوة من نسيج القطن المصبوغ باللون الأسود.

وأهتــم مماليك مصر بالكعبة الشريفة وبكسوتها وأوقفت لهذا الغرض واردات قريتين فى نواحى وخصصت لصناعتها داراً عرفت باسم دار الكسوة ومن هؤلاء المماليك السلطان الظاهر بيبرس (٦٦١ هـ) والسلطان إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ثم السلطان حسن (٧٦١ هـ) وقد رسم لنا الرحالة ابن بطوطة صورة واضحة لكسوة الكعبة فى هذه الفترة سنتعرف عليها فى الصفحات القادمة.

وعندما استولى العثمانيون على مصر وأمتد سلطانهم حتى شمل معظم الجزيرة العربية وقع على عاتقهم إرسال هذه الكسوة إلى الكعبة وأوقفــت لهذا الغرض أوقافاً كثيرة، وأصبحت عادة إرسال الكسوة بعد ذلك فرضاً على كل وال.

وصف الكسوة الشريفة

واستناداً إلى ما تقدم نستطيع أن نرسم صورة مقربة إلى ما كانت عليه الكسوة منذ فجر الإسلام وعلى مر العصور.

ففــى بداية العصر الإسلامى تؤكد المراجع التاريخية أن الكسوة كانت خالية من الزخرفة وإنها كانت سوداء اللون ثم أصبحت تزين بجامات منقوشة بالحرير الأبيض أومطرزة بأشرطة كتابية بيضاء زينت بأشرطة مطرزة بخيوط صفراء.

وحيــث أن الكسوة تتشابه فى المادة والزخرفة على مر العصور إلا أنها تختلف فى جودة الصنع ولهذا فأننا سوف نستعرض بعضاً من وصف المؤرخين والرحالة لنرسم لها صورة واضحة جلية.

فالازرقى المتوفى سنة ٢٢٣ هـ يصف الكسوة بقوله «... والبيت كله مستوف إلا الركن الأسود فأن الاستار تفرج عنه مثل القامة ونصف، وإذ

دنا وقت الموسم كسى القباطى... فأذا أحل الناس ذلك يوم النحر حل البيت فكسى الديباج الأحمر الخرسانى وفيه دارات مكتوب فيها حمد الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه.... »

أمـــا ابن جير يذكر فى رحلته وصفاً مفصلاً لما شاهده على الكعبة من الكسوة نفهم منه أن جوانب الكعبة الأربعة مكسوة بستائر من الحرير الأخضر وهى من عدة قطع يبلغ مجموعها أربع وثلاثون قطعة أوشقة مقسم على الإضلاع الأربعة للكعبة ففى الضلع المحصور بين الركن اليمانى والركن الشامى « تسع شقق » تقابلها بالمثل من الضلع الآخر والمحصور بين الركن الأسود والركن العراقى، أما بين الركن العراقى والشامى فيكون مجموع القطع ثمانى ومثلها ما بين اليمانى والركن الأسود، وقد وصل ما بين هذه الشقق كلها فأصبحت وكأنها ستارة واحدة، والزخرفة فى هذه الكسوة عبارة عن كتابة تنحصر فى شريط عرضه متر ونصف وطرز بخيوط من الحرير الأخضر أيضاً يقرأ فيه الآية الكريمة: « أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة.... » كما يضم الشريط الكتابى اسم الخليفة العباسى الناصر لدين الله وعبارات الدعاء له وتحف بالشريط طرتان « جامتان » حمراوان ملئتا بخط رقيق نقرأ فيه آيات من القرآن الكريم وذكر الخليفة أيضاً، فظهرت الكسوة بأجمل منظر وكأنها عروس جليت فى السندس الأخضر.

ويخبرنـا ابن بطوطة أن الكسوة فى أيامه كانت من الحرير الحالك السواد وهى مبطنة بنسيج الكتان السميك ويزدان أعلاها بشريط كتانى مطرز بخيوط من الفضة يقرأ فيه آيات من القرآن الكريم.

وحدثنـا « العمرى » عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال: « وهى الآن تكسى فى العام مرة واحدة فى وقت الموسم، وتحمل إليها من الخزانة السلطانية بالديار المصرية صحبة الركب... ولما حججت سنة ثمان

وثلاثين وسبعمائة، صعدت أنا وأمراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها ٠ فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض، ومن جوانبه جدر قصار فيها حلق لمرابط الستور، تجر فيها الكسوة بالحبال ثم تربط فى تلك الحلق» ....

وقد ذكر إبراهيم باشا رفعت فى « مرآة الحرمين » استشهاد شرعى حرر فى سنة ١٣٢١ هـ فى وصف كسوة تلك السنة بقوله « جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ثمانية أحزمة وأربعة رنوكة (دوائر) مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير والأخضر المبطن بالبفت الأبيض والنوار القطن »٠

وكان تصنع من كسوة الكعبة ستارة تعرف باسم « البرقع » وغالباً ما تكون ستارة باب الكعبة من نفس نسيج الكسوة أما زخارفها فتكون عبارة عن أشرطة كتابية تضم آيات من القرآن الكريم مطرزة بخيوط من الحرير الأبيض والأصفر وخيوط من الفضة والذهب.

وفى ذلك الاستشهاد الشرعى وصف لستارة باب الكعبة وقد جاء فيه: « وستارة بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر والأحمر المبطنة بالبغث الأبيض بها خمسة شراشيب حرير أسود وقصب وستة أذررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر وأثنتى عشرة شمسية مزركشة على الحرير الأحمر ».

دور الكســـوة

وفى معرض حديثه عن مدينة « تنيس » المصرية شمال دمياط يقول المؤرخ العلامة « المقريزى » فى خططه: « كانت من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية وتصنع بها كسوة الكعبة، قال الفاكهى فى كتابة أخبار

مكة: ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوباً عليها مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى سنة سبع وتسعين ومائة، ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها، إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود: مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين.. ورأيت كسوة من كسا المهدى مكتوباً عليها: بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة... «

كذلك كانت تصنع الكسوة فى قرية « تونه » من أعمال تنيس.. فيقول الفاكهى: « ورأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوباً عليها: بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز « تونة » سنة تسعين ومائة.. »

ومن خلال كتابات مؤرخى مصر الإسلامية نعرف أن « الكسوة الشريفة » كانت تصنع بـ « القصر الأبلق » داخل القلعة.. حتى عام ١٢١٣ هـ عندما صنعت بدار أمير الحج « مصطفى بك كتخدا » والذى كان أحد قادة ثورة القاهرة ضد حملة نابليون، وبعد أن زج به فى السجن، عهد بصناعة الكسوة إلى الشيخ « إسماعيل الخشاب » الذى قام بنقلها إلى دار « أيوب جاويش » بجوار مشهد السيدة زينب ٠٠ وفى عام ١٢١٩ هـ، تولى السيد « أحمد المحروقى » شاهبندر تجار القاهرة، صناعة الكسوة الشريفة ن حيث نقلها إلى « بيت الملا » بحارة المقاصيص، والتى شيدها الأمير « بيبرس الحاجب » أحد أمراء السلطان الناصر قلاوون، وبعد أن استقر محمد على باشا على عرش مصر سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥ م أمر بإعادة صناعة الكسوة بالقلعة ٠٠ إلى أن تم إنشاء « ورشة الخرنفش » سنة ١٢٣٢ هـ لتكون مقراً لأرباب المهن والحرف فى خدمة

الجيش المصرى، وكانت هذه الورشة تضم قسماً لصناعة القطن والحرير والأقمشة المقصبة، فانتقلت إليها صناعة الكسوة الشريفة، ومع انهيار « حلم الإمبراطورية « توقفت الصناعات، وانفردت هذه الورشة فقط بصناعة الكسوة، وأطلق عليها « مصلحة الكسوة الشريفة « وكانت تتبع وزارة المالية، حتى انتقلت تبعيتها عام ١٣٣٧ هـ / ١٩١٩ م إلى وزارة الداخلية، حتى عام ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م، حيث أصبحت تابعة لوزارة الأوقاف وتغير أسمها إلى « دار الكسوة الشريفة »..

وكانت هذه الدار تتوافر بها كافة مستلزمات صناعة الكسوة، بدءاً من تجهيز الغزل وصباغته ونسجه على الأنوال اليدوية، ثم زركشته بأيدى أمهر الصناع المصريين الذين برعوا فى هذا الفن بالوراثة، وكانت تصنع بها أسلاك الفضة « الملبسة « بالذهب.. وتحت إشراف « الأسطى باشى «.

كانت تتم عملية الزركشة التى تمر بعدة مراحل، حيث يقوم كبار الخطاطين بكتابة آيات من القرآن الكريم، ورسم الزخارف المطلوبة على قطع الكسوة، ثم تثبيت هذه الخطوط والزخارف، ثم ملء الخطوط والزخارف بالحشو- خيوط حريرية - ثم يقوم كبار الفنيين بوضع أسلاك الفضة الملبسة بالذهب فوق الآيات والزخارف ٠٠ لتكتمل معزوفة إبداع الكسوة ! ٠٠ وقد توقفت عملية تشغيل الكسوة الشريفة منذ سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ وتحول هؤلاء الفنانين إلى زركشة كساوى أضرحة الأولياء !

وبالإضافة إلى الكسوة، كان يصنع بالدار أيضاً: ستارة باب الكعبة (البرقع) وستارة باب التوبة وكيس مفتاح الكعبة، وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام، وستارة باب منبر الحرم المكى، كذلك كانت الدار تقوم بتجديد زركشة « المحمل « إلى جانب رعاية « جملى المحمل « حيث كان بالدار مكان مخصص لإيواء ورعاية الجملين طوال العام !

وتجـدر الإشارة إلى أن تكاليف نفقة الكسوة بلغت ٤٥٥٠ جنيه فى سنة ١٩٠٩ التى حج فيها الخديوعباس حلمى الثانى، وكانت جملة الأموال فى « صرة المحمل » مبلغ ١٨٨٩٣ جنيهاً، ويشمل مرتبات رجال المحمل لمدة ثلاث شهور، وراتب أمير مكة، والأموال المقررة لأشراف مكة ولتكيتى مكة والمدينة.

وجدير بالذكر أن عملية تسليم الكسوة الشريفة وصرة المحمل، كانت تتم بمقتضى « إشهاد شرعى رسمى » يكتب بحضور وزير المالية ووزير الأوقاف وأمير الحج وأمين الصرة ومفتى الديار المصرية وعدد من كبار رجال الدولة... !

مصنـع أم القـرى

فـى عام ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٦ م، أصدر الملك عبد العزيز آل سعود أمراً ملكياً بتشييد مصنع « أم القرى » خاص بصناعة الكسوة الشريفة، وجلب له أبرع الفنيين والعمال المهرة، وفى عام ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م صدر أمر ملكى سعودى بتجديد هذا المصنع، والذى استمر فى تقديم إنتاجه من الكسوة الشريفة حتى عام ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ عندما أفتتح المقر الجديد لصناعة الكسوة فى « أم الجود » وزود بأحدث ماكينات تحضير النسيج الآلى مع الإبقاء على أساليب الفنون اليدوية بما تمثله من قيمة رفيعة، وما زال المصنع يؤدى رسالته مواكباً التطور العلمى والفنى لتخرج كسوة البيت الحرام فى أبهى صورة تحت رعاية خاصة من حكومة المملكة العربية السعودية.

وكتقليـد سنوى، يحرص عدد من الملوك والرؤساء والأمراء وكبار الشخصيات الذين يحضرون مناسك الحج، على الإشتراك فى غسيل الكعبة المشرفة بتقدمهم جلالة خادم الحرمين الشريفين أومن ينوب

عنه (أمير مكة) ويدخلون جميعاً إلى الكعبة حيث يوزع عليهم سدنتها المكانس، ويوزع شيخ الزمازمة سطول الماء، ويتنافس الجميع فى نقل المياه من بئر زمزم إلى داخل الكعبة ثم يقومون بغسلها، بعد ذلك يجففون الأرض والجدران بقطع من الإسفنج ثم يطيبونها بأفخر عطور الورد والمسك والعنبر والعود والند ٠٠ وتسدل عليها ثيابها الجديدة ٠٠ ويعود الحجاج من منى فيرونها وقد اغتسلت وتطيبت وأخذت زينتها وابتهجت فترتفع أصوات الحجيج مكبرة مهللة ملبية ٠٠

اللهم زد بيتك الآمن العامر الطاهر شرفاً وتعظيماً

إشهاد تسليم الكسوة الشريفة لعام ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م

جرت العادة أن يكتب «إشهاد شرعى» بتسليم الكسوة الشريفة من مأمور تشغيلها إلى المحملى (من فى عهدته المحمل والكسوة) لتوصيلها إلى البيت الحرام، ويذكر فى هذا الإشهاد: أجزاء الكسوة وأوصافها، وهى لا تختلف فى سنة عنها فى الأخرى إلا فى جودة وفخامة ما تصنع منه، وغالباً ما كان يكتب الإشهاد بمحكمة مصرالكبرى الشرعية، وكان نص الإشهاد الشرعى لسنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م على النحوالتالى:

فى يوم الخميس ٢٦ ذى القعدة ١٣٨٠ هـ الموافق ١١ مايو١٩٦١م، فى الساعة الواحدة والنصف مساء، بمكتب السيد وزير الأوقاف بديوان الوزارة. لدينا نحن أحمد هريدى مفتى الجمهورية العربية المتحدة، بالنيابة ومعنا السيد / عبدالنظيم عبدالهادى القاضى سكرتير دار القضاء.

حضر السيد / محمد إبراهيم صالح رئيس دار الكسوة الشريفة وأخبر بإن الكسوة الشريفة فى هذا العام لبيت الله الحرام كما يلى:-

١- ثمانية أحزمة وأربعة كردشيات مزركشة جميعها بالمخيش الفضة الأبيض والمخيش الفضة الملبس بالذهب البندقى على حرير أطلس أسود

وأخضر، هذه الأحزمة وما يتبعها من رنوكة عددها أربعة وكذلك الكردشيات سالفة الذكر مركبة جميعها على ثمانية أحمال من الحرير الأسود، الكمخ المكتوب بالدالة المعروفة، وهذه الأحمال الثمانية مبطنة بالبفتة البيضاء وعروضها متماسكة بواسطة أشرطة من النوار القطن الأبيض، وتتكون هذه الأحمال من إثنين وخمسين ثوباً من قماش الكمخ المذكور يحتوى كل ثوب على ١٤،٨٠م، أربعة عشر متراً وثمانين سنتيمتراً طولياً بعرض ٩٣ س، ثلاثة وتسعين سنتيمتراً.

٢- ستارة باب بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع وهى مزركشة أيضاً بالمخيش سالف الذكر بنوعيه على حرير أطلس أسود وأخضر وأحمر ومبطنة بالبفتة البيضاء ومبطنة كذلك بالأطلس الحرير الأصفر وبها ثلاثة شرابات كبيرة من الحرير الأسود والقصب والمخيش والكنيتر وستة أزرار فضة مطلية بالذهب وإثنا عشر شرابة صغيرة من القطن الهندى الأحمر والقصب والكنيتر الفضة الأبيض والأصفر والمخيش العقادى الأصفر، وإثنتا عشر شمسية مزركشة على الحرير الأحمر بالمخيش الفضة بنوعيه ومبطنة بالأطلس الأحمر، والستارة المذكورة مكونه من أربعة أجزاء متصلة ببعضها وهى العتبة والطراز والقائمان الكبير والصغير.

٣- ستارة باب سطح بيت الله الحرام وهوالمعروف بباب التوبة داخل البيت الحرام وهى من الحرير الأطلس الأسود والأخضر والأحمر مزركشة بالمخيش بنوعيه ومبطنة بالبفته البيضاء والنوار القطن وكذلك الأطلس الحرير الأصفر.

٤- كيس مفتاح الكعبة المشرفة وهومن الأطلس الأخضر الحرير ومزركشة بالمخيش الفضة المذكور بنوعيه وله شرابتان من القصب الفضة الأصفر والمخيش العقادى والكنيتر الفضة الأصفر، وثلاثة أحبال قطن مجدولة

تعرف بالمجاديل وواحد وأربعون حبلاً من القطن تعرف بالعصافير، وهذه الأحبال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهرة، وإقتان من الحرير الطبيعى الأسود المفتول لإصلاح ما يلزم فى الكسوة الشريفة خلال العام، ويبلغ مقدار المخيش بنوعيه المزركشة به قطع قطع الكسوة الشريفة جميعها ١٢٩٥٩ - إثنا عشر ألفاً وتسعماية وتسعة وخمسين مثقالاً من الفضة النقية وما يخالطها من الذهب البندقى وجميع هذه الأحمال والمزركشات والأحبال والحرير المفتول داخل خمسة صناديق خشب ومعها قدران من النحاس بهما ماء ورد زنته مائه رطل لغسل بيت الله الحرام حسب المعتاد.

وقد قرر السيد المقدم عبدالرحمن حلمى الزغبى مدير مكتب الأمن بوزارة الأوقاف وهوالمنتدب فى حج هذا العام لتسليم الكسوة الشريفة بالأقطار الحجازية والحاضر بالمجلس انه تسلم الكسوة الشريفة بعددها وأوصافها المذكورة لتسليمها للسادة مندوبى المملكة العربية السعودية بمكة المكرمة وهم مديرا الأوقاف العام ومدير الحرم الشريف وسادن الكعبة المعظمة أسوة بما أتبع فى العام الماضى.

صدر ذلك بحضور كل من السادة الأستاذ حسن عباس زكى وزير الإقتصاد ورئيس بعثة الحج فى هذا العام والأستاذ أحمد عبدالله طعيمه وزير الأوقاف والمهندس إبراهيم محمد عسكر وكيل وزارة الأوقاف والمهندس على زاهر الوكيل المساعد لوزارة الأوقاف والأستاذ عبدالمنعم مغربى عبدالله سكرتير عام وزارة الأوقاف والأستاذ محمد فريد الجندى مدير قسم الإدارة والأستاذ عبدالعزيز جاد الحق مدير مكتب وزير الأوقاف والأستاذ محمود عمار مدير مكتب وزير الإقتصاد وسكرتير عام البعثة، وقد تليت هذه الحجه ووقع عليها من الحاضرين.

سكرتير دار الإفتاءمفتى الديار المصرية

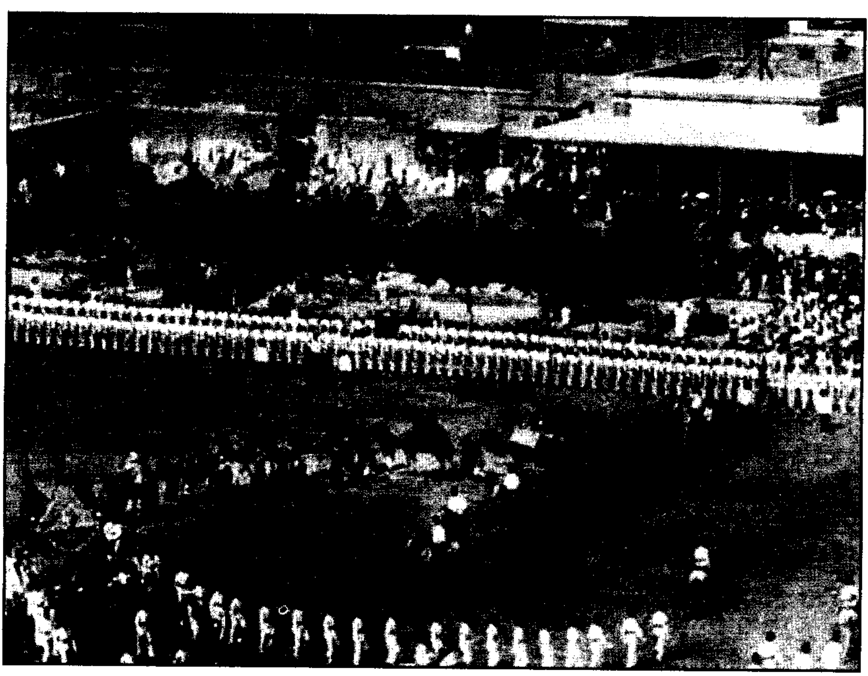


والى الحجاز يصافح أمير الحج الشامى فى المدينة المنورة عام ١٩٠٨



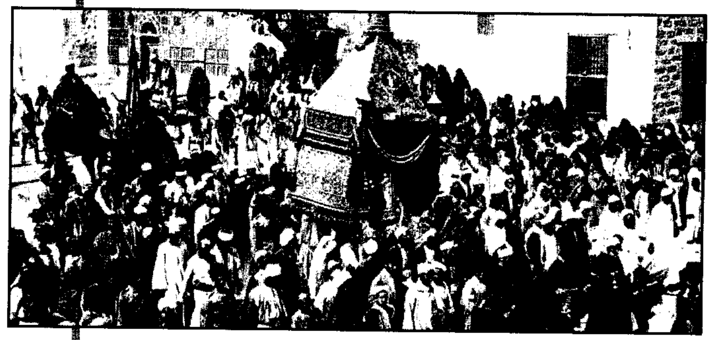
فى معسكر قافلة الحج الشامي عام ١٣٤٣هـ







المحمل المصرى.. وأيامه المشهودة فى القاهره والحرمين الشريفين



منظر عام للمحمل المصرى بعد وصوله إلى مكة المكرمة عام ١٨٨٦هـ

حظيت « الكسوة الشريفة » بأبلغ اهتمامات الخلفاء والملوك والسلاطين .. حيث كانت تحمل من مراكز القوة سواء من بغداد (الخلافة العباسية) أومن القاهرة (الخلافة الفاطمية / الدولة الأيوبية / سلاطين المماليك / الإمبراطورية العثمانية) وكانت الكسوة تحمل إلى الكعبة المشرفة وسط حفاوة رائعة ومراسيم خاصة بحامل من الخشب يطلق عليه « المحمل » ..



ويذهب بعض المؤرخين إلى أن تاريخ « المحمل « يرجع إلى سنة ٦٤٥ هـ، ووصف بأنه « الهودج « الذى أقل ملكة مصر « شجرة الدر « فى حجها فى ذلك العام، ثم صار يسير - فارغاً - سنوياً أمام قافلة الحج ٠٠ لأن مكان الملوك لا يشغله غيرهم !

ويذهب البعض إلى أن فكرة المحمل أقدم من ذلك، وربما إلى عصر ما قبل الإسلام، فكانت تطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا إلى الكعبة المشرفة، وقد سير خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - محملاً إلى مكة بهداياه إلى البيت المعظم ٠٠ وما ورد فى المصادر التاريخية عن تجهيز ومسارات: المحمل العراقى، المحمل الشامى، المحمل اليمنى، ومحمل " سبهان " ابن الرشيد ومحمل " ابن سعود " ومحمل ابن دينار ٠٠ كذلك محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند يأتى مكة مع الحاجين من بلاده حاملاً هداياه إلى أهل الحرمين الشريفين ٠

والمحمل عبارة عن إطار مربع من الخشب هرمى القمة مغطى بستار من الديباج الأحمر أوالأخضر وغالباً ما يزدان بزخارف نباتية وأشرطة كتابية مطرزة بخيوط من الذهب وينتهى من الأسفل بشراشيب وللمحمل أربعة قماقم من الفضة المطلية بالذهب فى الزوايا الأربعة ويوضع

داخل المحمل مصحفين صغيرين داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقتين فى القمة إضافة إلى الكسوة الشريفة، يوضع المحمل على جمل ضخم يسمى (جمل المحامل) ويتمتع هذا الجمل باعفائه من العمل بقية أيام السنة !

وكان للمحمل عشرون جملاً لهذه المأمورية، وكان لها مناخ فى بولاق ابوالعلا بجوار ضرح « سيدى سعيد » وكانت الحكومة تشرى مع هذه الجمال « جملاً تجعله فداء عنها كل سنة » وقبل خروج قافلة الحج، كان « شيخ الجمل » يركب جمل الفداء هذا يحيط به: العكامة والضوية وامامهم الفرايحية، يحيط بهم حشود الناس، فى موكب يجوب شوارع القاهرة حتى يصل إلى باب ضريح سيدى سعيد، حيث يذبح هناك، ثم يقسم: الربع للمحاملى « شيخ الجمل » والربع الثانى للجمالة، والربع الثالث لسدنة ضريح سيدى سعيد، والربع الاخير لسدنه ضريح الشيخ يونس..!

صرة المحمل

وأشار مؤرخومصر الاسلامية الى جملة ما يصرف على المحمل وقافلة الحج: « مائة وعشرون الف دينار » وصلت فى بعض السنوات فى عصر دولة سلاطين المماليك إلى: مائتى ألف دينار، شاملة «نفقة الوفد الواصل إلى الحضرة» وتكلفة الحمايات والصدقات وأجرة الجمال والمعاونين وخدم القافلة وحفر الآبار..

وكانت هذه النفقات تودع فيما عرف بـ«صرة المحمل» بمقتضى إشهاد شرعى، وكتب الأميرالاى «إبراهيم باشا رفعت» أمير الحج فى عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م » وكانت النقود التى أودعت – صرة المحمل – فى سنة ١٣١٨هـ

سلمت لأمين الصرة بمقتضى إشهاد شرعى رسمى عمل بمحضر ناظر (وزير) المالية وأمير الحج - أمين الصرة - وصرافها وصراف من المالية ومندوب من قبل حضرة صاحب الفضيلة قاضى قضاة مصر... وكان جملة ذلك بالجنية المصرى والمليم:

مليم جنيه

¼ ٢٦٢١٨٨٩٣

(لاحظ إثبات الربع مليم !)

والمبالغ المذكورة تشمل مرتبات رجال المحمل جميعهم مدة ثلاثة شهور وهى المدة المقدرة لسفر المحمل ومرتب أمير مكة والمقدر لأشرافها وللعربان ولتكيتى مكة والمدينة وجميع النفقات الأخرى اللازمة من أجرة الجمال وثمن علف الدواب... الخ» !

وأورد «محمد لبيب البتنونى» كشفاً ببيان «ما يصرف من المالية سنويا فى تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها فى مكة المكرمة والمدينة المنورة حسب الوارد فى ميزانية سنة ١٩٠٧» على النحوالتالى:

جنيه مصرى		جنيه مصرى	
١٢٨٢	مرتبا وتعيينات لأمير الحاج ومستخدمى المحمل	١٦٢٩	شمع وقناديل للحرمين الشريفين
		١٥٥	خيام وقرب وخلافها
٢٥١١	العربان	٤٢٤٨	أجرة منقولات براً وبحراً وأجر جمال
١٤٩٣	الإشراف بمكة والمدينة المنورة	٦٤٢٠	قيمة مخصصات الحرمين من الزيوت والحصر وخلافه من ديون الأوقاف
١٩٦١	تكية مكة		
١٦٥٧	تكية المدينة المنورة	٢٦٥	مصروفات نثرية
٢٨٧٩	أهالى مكة والمدينة		
٣٠٠٠	لمكة والمدينة تصرف من أوقاف الحرمين والأوقاف الخصوصية والأهلية ومن الخاصة الخديوية والمالية.	٥٠,٠٠٠	مجموع المنصرف سنويا..!
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة		

المحمل المصرى فى عصر سلاطين المماليك

كان موسم الحج فى عصر سلاطين المماليك . خاصة . بمثابة تأكيد لزعامة مصر على العالم الاسلامى، فقد كانت قافلة الحج المصرى أضحم قافلة للحج وأوفرها نظاماً وحماية وأعظمها ثراء وأبهة، وكثيراً ما كان سلطان مصر يخرج على رأس ركب الحج، فينشر هيبة دولتة، وحسب مصر فى عزها القديم أن كثيراً من ملوك العالم الأسلامى كانوا يستأذنون سلطان مصر قبل أن يخرجوا من بلادهم للحج ليكونوا فى حمايته !.. كما فرضت طبيعة موقع مصر أن تكون مركزاً لجمع نسبة ضخمة من حجاج العالم الأسلامى، خاصة شمال وغرب أفريقيا وجزر البحر المتوسط، كما كان يقصدها حجاج بلاد الشام وتركيا والقوقاز فىالسنوات التى لا يخرج فيها المحمل الشامى.

وللمحمل المصرى ذكريات وأيام مشهورة فى تاريخ القاهرة، حفظتها أفلام المؤرخون والرحالة المسلمون والأجانب.. وكان يضم ستائر الكسوة الشريفة الجديدة، ثمانية أحمال أوستائر من الحرير الأسود الفاخر المخيط بالحرير الأبيض المفتول والمخيش الفضى الملبس بالذهب البندقى، بالاضافة إلى كردشيات (جامات) الكسوة، وستارة باب الكعبة (البرقع) وتتكون من: العتبة والطراز والقائم الصغير والقائم الكبير والوصلة، ثم كسوة مقام ابراهيم عليه السلام، وستارة باب مقصورة ابراهيم عليه السلام، وستارة باب التوبة، وستارة باب منبر الحرم المكى ثم كيس مفتاح الكعبة المشرفة، بالاضافة إلى كسوة الحجرة النبوية الشريفة وستارة المنبر النبوى.

فى أحداث سنة ٩١٨ هـ، أشار المؤرخ العظيم «إبن إياس» إلى أنه فى الرابع عشر من شهر شوال «جلس السلطان بميدان القلعة وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليــه السلام والمحمل وشقوا بهم

من القاهرة وكان لهم يوم مشهود، وفى ثامن عشرة خرج الحاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف..».

فى عصر الامبراطورية العثمانية

وكان أبرز ما يميز الاحتفال بدوران المحمل فى العصر العثمانى كما أشار الرحالة الورثيلانى: «خروج العوام والنساء، حيث تنطلق الزغاريت من الطيقان، والناس مشرفون من الديار والمساجد التى تلى الشوارع، وتعطل فيها الأسواق فى ذلك اليوم».. وسمى الورثيلانى دوران المحمل: « الخروج الأول»! فكتب: «يخرج المحمل الخروج الأول فيؤتى به من دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج الصناجق كلها والأمراء والولاة والحكام والقاضى، كل مع أتباعه، ولكل مجلس عموم فى السجافة المضروبة، ومجلس الباشا فى الوسط..» ثم يتوجه الجميع راكبين خيولهم فى حراسة طائفة من العسكر إلى ميدان الرميلة (القلعة).. « فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذى يحمل المحمل، ويبدوعلى هذا الجمل حسن الطلعة !.. والكسوة من الديباج المخوص بالذهب، ورأس الجمل ورقبته وسائر أعضائة محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم..» وعندما تعرض قطع الكسوة بين يدى الباشا والأمراء «يقومون لها إذا مرت تعظيماً لها» ثم يمرون بها فى الشوارع والأسواق، بينما تتدافع حشود الناس لمحاولة لمسها والتبرك بها، حتى تصل إلى مسجد مولانا الإمام الحسين.

وقد أشار مؤرخنا « الجبرتى « إلى ذلك الاحتفال المشهود الذى كان يعقد عند «إتمام عمل الكسوة « بحضور الباشا أونائبه، فيسيرون بها فى موكب عظيم يشقون به من القلعة إلى مسجد مولانا الإمام الحسين، إلى أن يحين موعد خروج المحمل وقافلة الحجيج إلى مكة .. وعندما تحدث على باشا مبارك فى خططه عن « المشهد الحسينى « قال: «.. وفى شهر

شوال تحمل إليه كسوة الكعبة الشريفة بموكب، فتخاط فيه، وتحمل منه بموكب إلى غير ذلك من العوائد الجليلة « ١..

«دوران المحمل» فى عهد الأسرة العلوية

كان يحتفل بـ «دوران المحمل» عادة فى شهر رجب، وكان الغرض من تدوير المحمل هوإعلام من يرغب بالحج للتأهب والاستعداد لرحلة العمر، وإعلام الناس عامة أن طريق الحج آمن.

وكانت نظارة (وزارة) الداخلية ترسل الى نظارة المالية: إشعارا بتعيين أمير الحج وأمين الصرة، ثم ترسل المالية إلى كلاهما خطاباً محدد فيه واجباتهما وكشف بعدد الموظفين والأطباء والعكامة والمشاعلية وغيرهم من الضباط والجنود والخدم وعدد الخيام والجمال وسائر المستلزمات.

وكتقليد متبع فى كل عام، وبالتحديد فى شهر ذى القعدة، كانت نظارة الداخلية ونظارة المالية يتفقان على اليوم المحدد النقل الكسوة من: دار الكسوة الشريفة (مصلحة الكسوة / ورشة الخرنفس) التى أمر ببنائها محمد على باشا عام ١٢٣٢ هـ بحارة النصارى المعروفة بخميس العدس.. إلى مسجد الامام الحسين. رضى الله عنه. ويصدق الخديوعلى تعيين ذلك اليوم، ويصدر الأمر من رئيس مجلس النظار بتعطيل الدواوين والمصالح الحكومية، وينشر ذلك فى الجريدة الرسمية، وتخطر نظارة الداخلية نظارة الحربية ومحافظة العاصمة ليكون الجميع ضباطاً وجنود على أهبة الاستعداد، كما تقوم المحافظة بإرسال الدعوات إلى العلماء وكبار رجال الدولة لحضور الاحتفال، الذى يبدأ غالباً فى الساعة التاسعة صباحاً.

قبل أن يحين الموعد بنحوالساعة، وفى ميدان القلعة تجاه «مصطبة المحمل» تصطف الجنود حاملين أسلحتهم، ويبدأ توافد المدعوين

فيستقبلهم وكيل المحافظة ومندوبوها، ويجلس العلماء فى الميمنة، خلفهم المندوب العثمانى والنظار والأمراء والأميرات وكبار الأعيان والتجار.. وفى الميسرة يجلس كبار موظفى الديوان الخديوى، خلفهم قادة الجيش والجميع بملابس التشريفة فى إنتظار «الجناب العالى» الذى يحضر فى عربة يجرها أربعة جياد، وبجواره رئيس النظار، ثم عربات كبار رجال الياوران والمعية، يحيط بالجميع ١٤٨ من فرسان الحرس الخديوى، وتؤدى للخديومراسم الاستقبال الرسمى باطلاق ٢١ طلقة مدفعية ثم السلام الخديوى، وبعد أن يحيى الجميع يجلس فى مكانه المخصص وبعدها يأخذ «مأمور تشغيل الكسوة» بزمام جمل المحمل ويدور به ثلاث مرات ثم يتوجه نحوالخديوالذى ينزل إلى أول درجة من المصطبة، فيتقدم إليه مأمور الكسوة بكيس «مفتاح الكعبة» مبسوطاً على كفيه، فيتناوله سموه ويقبله ثم يتلوه قاضى القضاة، ثم يتلى «دعاء المحمل» وتقدم الهدايا إلى أربابها، ثم يعتلى أمير الحج جواده وخلفه المحمل وتعرض قطع الكسوة على المشاهدين فى حراسة «أورطة» من الجنود، ويستعرض الخديوقوات رمزية من الجيش ومن سلاح الفرسان وحامية ركب الحج المصرى.. وعقب انتهاء الحفل، يدور ركب المحمل بشارع محمد على ثم شارع سوق السلاح فالدرب الأحمر إلى باب زويله ثم الغورية فالسكة الجديدة حتى يتخذ طريقه إلى المشهد الحسينى، حيث أمير الحج وأمين الصرة فى إستقبال الكسوة وعقب دخولها يزوران مع السدنة ضريح مولانا الامام الحسين.. وفى موعد محدد بالمسجد الحسينى وبحضور ناظر المالية وقاضى القضاة وأمير الحج وأمين الصرة: يحرر «إشهاد» شرعى بتسليم الكسوة، ثم توضع فى صناديق مخصصه لذلك، وأيضاً إشهاد شرعى بتسليم الصرة ولكن فى مكتب معالى ناظر المالية !

طلعة المحمل

رافق «محمد لبيب البتنونى» صاحب «الرحلة الحجازية»: الجناب العالى الخديوعباس باشا حلمى الثانى، فى رحلته «لأداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام» وبدأت هذه الرحلة المباركة فى صباح يوم ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢٧هـ.. وكتب عن خروج المحمل أو«طلعة المحمل» كما كان شائعاً على ألسنة عامة الناس: «ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الأيوبية، وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشى فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناب العالى الخديوى سنوياً، وهومن الباشوات العسكريين فى الغالب، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان القلعة يمر على المصطبة، وهى المكان المعد لجلوس الجناب العالى الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الإعلام وكبار وذوات العاصمة،وهنالك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالى منه ويسلمه إلى أمير الحاج، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملى والجمالة ثم الفرايحية (الطبالون) على جمالهم، ويستمر هذا الموكب سائراً إلى المحجر فالدرب الأحمر ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية. وهنالك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التى ضربت لهم فى فضاء العباسية، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به حتى إذا كان يوم السفر إلى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم إلى وابور المحمل الذى يكون مهيأ فى محطة العباسية، وبعد الشحن يسير إلى السويس ومنها يبحر إلى جدة، ثم يقصد مكة براً«.

الاحتفال فى مكة مكرمة والمدينة المنورة

فى يوم وصول المحمل وقافلة الحج المصرى، يخرج شريف مكة إلى لقاءها، فى موكب من الأمراء وإمام وعلماء وخطباء الحرم المكى وشيوخ قبائل العربان، فيتقدم الجميع إلى أمير الحج المصرى بالتحية والتعظيم، وتطلق المدفعية ٢١ طلقة بينما يصطف جنود البيادة لأداء واجب السلام.. وفى اليوم التالى، يقام إحتفال مشهود بغسل الكعبة المعظمة وإلباسها كسوتها الجديدة.

وعند وصول المحمل المصرى إلى المدينة المنورة يدخلها باحتفال رائع من «باب العنبرية» حيث يطلق له واحد وعشرون طلقة مدفعية، حتى إذا وصل الركب إلى «الباب المصرى» ترجل الجميع إجلالاً لمقام رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ويكون فى إستقبال القافلة: والى المدينة وشيخ الحرم النبوى ونقيب الأشراف وأعيان المدينة.. فاذا وصلوا إلى «باب السلام» تقدم شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب ثم أناخه على تلك الصدفة الواسعة، ويرفع المحمل حتى يوضع فى مكانه غربى المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء، ثم يرتدى أمير الحج المصرى وكبار المستخدمين لباس الخدمة فى الحجرة الشريفة، ثم يحملون الكسوة الجديدة بكل إجلال ويدخلونها الحجرة الشريفة من الباب الشامى، فى جانب من روضة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

دولتشين .. وكسوة السعادة !

وكان الضابط الروسى المسلم « عبد العزيز دولتشين » فى عام ١٨٩٨ وبتكليف من هيئة الأركان العامة للجيش الروسى، قد رحل إلى مكة، مؤدياً

مناسك الحج لتتحقق له أغلى الأمانى، ثم ليضع تقريراً شاملاً دقيقاً احتوى معلومات ذات طابع عسكرى وسياسى وأثنوغرافى واقتصادى تتعلق بجزيرة العرب.....

ويصف « دولتشين » فى يومياته وبالتحديد فى يوم ١٦ إبريل ١٨٩٨، مراسم الاستقبال الرسمى لـ « المحمل الفلسطينى » ٠٠ يقصد «المحمل الشامى» ثم « المحمل المصرى » الذى كانت تحرسه فرقة من الفرسان الأتراك، وقد توافد أهل مكة على الهجائن والحمير لمشاهدته والتبرك به ! ٠٠ وقد أشار « دولتشين » إلى أن المحمل المصرى كان يتخذ طريق البر – قبل الاحتلال البريطانى – عبر السويس والعقبة والوجه وينبع ورابغ إلى مكة، متخذاً نفس الطريق فى رحلة العودة، معرجاً على المدينة المنورة ٠٠٠ وفيما بعد، اصبح المحمل ينقل بالباخرة من السويس إلى جدة ٠٠ ويصف " دولتشين " الكسوة، فكتب: " جدران الكعبة مكسوة من الخارج على علوها بقماش أسود فاخر يسمى " كسوة السعادة " !

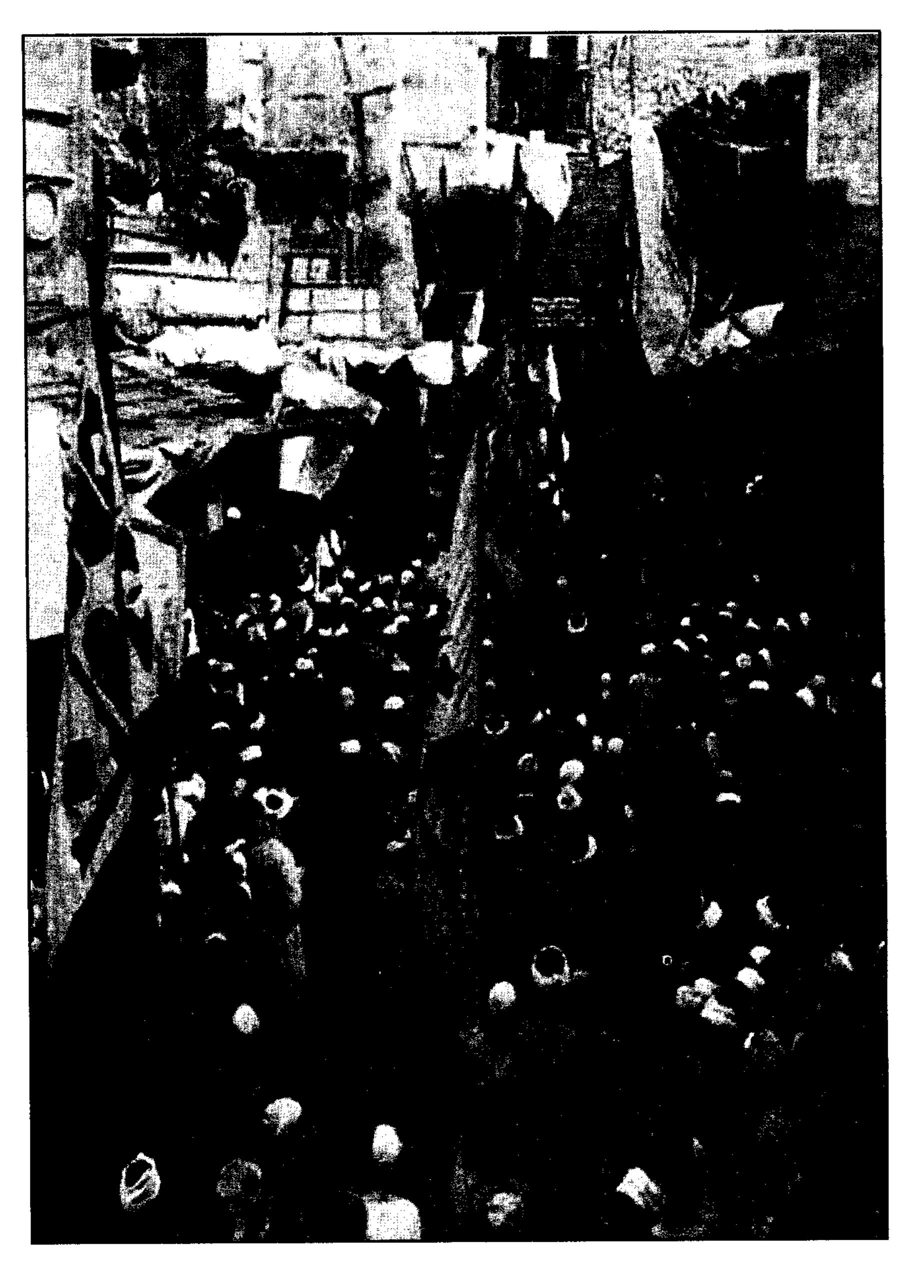
والكسوة عبارة عن قماش أسود حريرى سميك جداً مخيط من ٨ قطع ومطوق ثلثها الأعلى بآيات من القرآن الكريم موشاة بالذهب. وهذا القماش يصنعونه كل سنة فى مصر بمبلغ خاص من أموال الأوقاف قدره ٤٥٠٠ ليرة مصرية (حوالى ٤٥٠٠٠ روبل) ويرسلونه إلى مكة المكرمة مع المحمل وكل سنة يجرى تغيير الكسوة فى اليوم العاشر من ذى الحجة، ووضع الكسوة القديمة تحت تصرف نظار الكعبة، فيبيعها هؤلاء قطعاً من الحجاج، أما الكتابات بخيوط الذهب، فتوضع تحت تصرف الشريف، وفى السنوات التى يصادف فيها اليوم العاشر من شهر ذى الحجة يوم الجمعة، يرسلون الكسوة إلى السلطان فى القسطنطينية !

نزلة المحمل

وعند عودة المحمل وقافلة الحج إلى مصر، كان يحتفل بقدومه رسميا ً وشعبيا ً بحضور السلطان أوالوالى أوالجناب العالى، وعند وصول الموكب إلى «مصطبة المحملط بميدان القلعة، يستلم الحاكم زمام جمل المحمل من أمير الحج ثم يسلمه إلى «حضرة مأمور تشغيل الكسوة» وعندها تنطلق مدافع القلعة..

وحتى عصر مصر الملكية كانت نزلة المحمل: «يوم ترتج له أطراف القاهرة، والزينات الخصوصية فى أبهى مظاهرها» وكانوا «يبلون السكر بماء الورد فى أحواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام».. وعقب الإنتهاء من الإحتفال، تحفظ الكسوة القديمة فى مخزن تابع للمالية، أما الكسوة الخضراء فيكسى بها سنويا ً بعد العودة: ضريح يونس السعدى فى باب النصر «وكانت له مدة حياته خدمة فى سفرية المحمل».





المناصب الرسمية
فى قافلة الحج المصري





كـان « دوران المحمل » .. و« طلعة المحمل » .. من المناسبات الجليلة القدر التى اختصت بها مصر الإسلامية .. واستمر المصريون يعيشون فرحة هذه المناسبات فى مهرجان صاخب رائع الملامح، طوال عصر سلاطين المماليك وعصر الدولة العثمانية وعصر أسرة محمد على باشا حتى آخر احتفال بخروج المحمل عام ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م





والاحتفال بدوران المحمل كان يتم عادة فى منتصف شهر رجب، حيث كان «منادى السلطان « ينادى فى « أهل مصر المحروسة « يعلمهم بخروج المحمل وعلى من يرغب فى أداء فريضة الحج أن يتهيأ للخروج وعند ذلك وكما يقول الرحالة ابن بطوطة «تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التأهب «..

وكان الاحتفال الثانى فى الأسبوع الثالث من رمضان، عندما ينتهى العمل فى كسوة الكعبة الشريفة، فيخرج الأمراء والمحتسب والقضاة الأربعة فى صحبة الكسوة «وهى محملة على الجمال، فيشقون بها القاهرة فى موكب حافل، وكان يوماً مشهـوداً « حتى يصلون بها إلى مسجد الأمام الحسين - رضى الله عنه - فتوضع بغرفة الآثار النبوية حتى يحين موعد رحيل ركب الحاج.

وفى السابع عشر من شهر شوال، كانت احتفالية وداع ركب الحاج، وهى الاحتفال الثالث بخروج المحمل أو« طلعة المحمل « كما أشتهر على ألسنة العامة من الناس وهذا الاحتفال الأكثر صخباً كان موضع اهتمام الرحالة والكتاب والفنانين الأجانب الذين زاروا مصر.

وقـد أولت الدولة فى مصر المملوكية والعثمانية اهتماماً خاصاً

بتنظيم « ركب الحاج المصرى « ورعايته، وبقدر ما كان الاهتمام المادى لإعداد وتجهيز المحمل والكسوة الشريفة وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ونفقات الرحلة ... كان الاهتمام باختيار أصحاب " الوظائف الرسمية " المرافقين للمحمل وقافلة الحج..

وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة « أبوبكر الصديق « كان أول من تولى إمارة الحج عندما اختاره النبى - صلى الله عليه وسلم - عام ٩ هـ / ٦٣١ م ليقود قافلة الحج من المدينة المنورة وترأس شعائر الحج.. كما تولى الخلفاء الراشدين من بعده إمارة الحج، وقد صار تقليداً ثابتاً أن يتولى أمراء المؤمنين خلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية إمارة الحج أويعينون من الأسرة المالكة من يكون ممثلاً شخصياً للخليفة ويقود قافلة الحج من عاصمة الخلافة (دمشق ثم بغداد) وفى عصر سلاطين المماليك كان اختيار أمير الحج عادة من بين « رجال السيف « ذوى الرتب العسكرية الرفيعة: أمير مائه، قائد ألف، أمير طبلخانة، حاجب الحجاب، أمير مجلس، نائب القلعة ... وكان من العادة، عقب عودة ركب الحج، أن يعود أمير الحج إلى استئناف مهام وظيفته الرسمية.

وفى عصر الدولة العثمانية، كان يصدر فرمان من الباب العالى « السلطان العثمانى « إلى « باشا مصر « باسم من اختاره أميراً على قافلة الحج المصرية فى نفس العام.

حفل تنصيب أمير الحج المصرى

كان اختيار أمير الحج يتم بعناية فائقة من بين الشخصيات التى اشتهرت بالتقوى والصلاح، وعرف عنها القوة والشجاعة، والقدرة على حسن التصرف..

وفى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى ٠٠ كان السلطان يجتمع بالدوادار

الكبير والقضاة الأربعة والعلماء والأمراء من كبار رجال الدولة ٠٠ فى « الحوش السلطانى » بالقلعة ٠٠ وكان « يوماً مشهوداً » ٠٠ يبدأ بتلاوة القرآن و« ختم البخارى » وقصائد وابتهالات فى مولد النبى ٠٠ ويمد « سماط حافل » ٠٠ وتقدم المشروبات المحلاة بالسكر وماء الورد وعصير اللوز إلى السلطان وضيوفه.. فكان السلطان يشرب بعضاً من قدح شرابه، محتفظاً بالباقى إلى من اختاره ليكون أميراً للحج.. وعند تقديم القدح للأميـــر المختـار.. يتقدم من فوره لتقبيل يد السلطان، ويقوم شهود الحفل جميعهم بتقديم التهنئة إلى أمير الحج، ويقدم إليه السلطان « الخلعة » زى التشريفة، كما يخلع على الحاضرين الخلع ويفرق الصرر !.. وينزل أمير الحج من القلعة فى موكب حافل يشق شوارع القاهرة حيث يبدأ على الفور الإعداد للرحلة المقدسة، وترتيب موظفى الهيئات الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية والخدمات المعاونة.

الهيئـــة الإداريـــة

أميـر الحـــج

فـى إطار كافة الصلاحيات المخولة لأمير الحج من أجل نجاح مهمته فى قيادة ركب الحج إلى الحجاز ثم العودة به، ودفع أذى العربان عن الحجيج والحفاظ على أمنهم، سواء بالسياسة أوبقتالهم، والحفاظ على أموال الصرة (أربعمائة كيس تخصم من خزينة السلطان) وقد تميزت قافلة الحج المصرى بالانضباط والنظام فى تشكيلها وخلال الرحلة نفسها، وتحددت عدة مهام رئيسية لأمير الحج على النحوالتالى:-

أن يعلم درب الحاج ومحطات الوقوف فى منازل معروفة بـ « الدرب الشريف » مع الحرص فى تسيير الحجاج فى قافلة واحدة حتى لا يتفرقوا

وتتشتت بهم السبل ومن ثم يتعرضون للأخطار ٠

العمل على راحة الحجاج، وتحديد أماكن الإقامة والمسير للوحدات السبعة التى تتشكل منها القافلة، وتفادى أية منازعات بينهم ٠

الرفق بالحجيج، والصبر بهم عند الرحيل من محطات التوقف بمقدار راحتهم واعتدال الوقت، ومراعاة سير الضعفاء منهم ٠

اختيار أكثر الطرق يسراً وأمناً.

الحرص على ارتياد الطرق التى تتوفر بها المراعى وآبار المياه ٠

يتولى مهمة حراسة القافلة إذا حطت الرحال فى أحد المواضع، وأن يحوطها إذا رحلت، ويتجنب العربان وقطاع الطرق عن طريق الإدلاء الأمناء ٠

حماية القافلة ضد من يحاول إعاقة رحلتها المقدسة، سواء باللجوء للقتال، أوبجمع بعض الأموال « خفارة « من الحجيج - دون إجبار على ذلك - لدفعها إلى المهاجمين من أجل إكمال المسيرة.

أن يجلس إلى الحجيج فى محطات الراحة، للنظر فى الشكاوى والمنازعات أوإحالة الأمر إلى قاضى المحمل للفصل بين المتنازعين ٠

معاقبة المخالفين من الحجيج وفقاً لما يقرره الشرع ٠

مراعاة وصول الركب فى الموعد المناسب لأداء المناسك ٠

وعنـد وصول ركب الحج المصرى إلى الحدود الغربية لمدينة مكة، يكون شريف مكة ومرافقوه فى استقبال القافلة باحتفال رسمى.. وكان السلطان الأشرف قايتباى قد ألزم شريف مكة بالسجود و« تقبيل خف جمل المحمل « !.. حتى صار تقليداً متبعاً.. ثم يتقدم أمير الحج - ممثل

السلطان المملوكى - بإهداء خلعة فاخرة للشريف لتأكيد وضعه كنائب للسلطان فى مكة ٠

(٢) أمير الركب الأول

بتحديد أمير الحج المصرى.. كان سلاطين المماليك يعينون من يتلقب بـ « أمير الركب الأول «.. يقوم بصفة رسمية بقيادة « الركب الأول « أو« قافلة المقدمة « وهى التى تسبق القافلة الرئيسية فى مغادرة القاهرة بيوم أواثنين..

ومـن المرجح أن هذا المنصب قد أنشيء فى عهد « المماليك البرجية «.. ففى عهد « المماليك البحرية « جرت العادة على تجميع الحجيج فى قافلة واحدة ترحل تحت اسم « الركب المصرى «، يقودها أمير الحج..

كـان تعيين أمير الركب الأول بأمر من السلطان، ويتم اختياره من بين القيادات العسكرية أسوة بأمير الحج.. ويقود قافلة المقدمة مستقلاً عن قافلة المحمل وكان واضحاً أنه يمارس خلال الرحلة نفس مهام أمير الحج أومعظمها، وبوصول القافلتين إلى الأراضى المقدسة كان يجب على أمير الركب الأول أن يكون تحت رئاسة أمير الحج، مع تمتع أمير الركب الأول بالسلطة التنفيذية على قافلة المقدمة التى يقودها ٠

ويشير المؤرخ « ابن اياس « فى حوادث سنة ٩١٠ هـ، فى عصر السلطان قانصوه الغورى: « ... نودى فى القاهرة بسبب دوران المحمل ولبسوا الرماحة الأحمر على العادة.. وباسوا الأرض للسلطان فى الرملة عند انتهاء اللعب ثم دار المحمل وكسوة الكعبة الشريفة ومقام إبراهيم عليه السلام ... وكان أمير ركب المحمل قانيباى قرا أمير آخور كبير، وبالركب الأول الأمير جان بردى ".. وفى سنة ٩١٣ هـ " حج فى هذه السنة من

الناس ما لا يحصى، وكان أمير ركب المحمل طراباى رأس نوبة النوب، وأمير الركب الأول قانصوه أبوسنه ... وكان قاضى المحمل: شمس الدين التتاى المالكى "..

وفى سنة ٩١٧ هـ، أقام الزينى بركات بن موسى للسلطان « مدة حافلة وصنع له طواجن البورى ومأمونية وحلوى ... وكان أمير ركب المحمل طومان باى الدوادار الكبير ابن أخى السلطان، وأمير الركب الأول بيك باى الذى كان نائباً بالقدس.

(٣) دوادار أمير الحاج :-

وكان بمثابة وكيل أونائب أمير الحاج ومستشاره.. يميزه عقل راجح وحسن التصرف وسياسة وفروسية، ومهمته إبلاغ الرسائل عن الأمير وتقديم المشورة له ويكتب عنه فى المهمات التى يتولاها بنفسه، والطواف على الحجيج بالنهار والليل، وتأمين طريق القافلة وتنظيم دوريات الحراسة.

الهيئـــة القضائية

قاضـــى المحمـل

كان أمير الحاج يعينه من بين قضاة المذاهب الأربعة، ويعتمد تعيينه قاضى القضاة، ويصدر من « ديوان الانشا « مرسوماً بتعيينه متضمناً واجبات منصبه، وكان بمثابة حاكم شرعى يقضى بين الحجاج فيما يختلفون فيه، وارشاد الحجيج فيما يتعلق بالإحرام والمناسك، وتقرير العقوبة الشرعية على من يرتكب أى فعل محظور على المحرم، ويقرر وبدقة بداية الشهور القمرية تحسباً ليوم وقفة عرفات، والإشراف على جميع العقود الموقعة بين أمير الحاج والحجيج وقادة الجمال والوسطاء.

شهـود المحمـل

وهما اثنان من أهل الأمانة والتقوى والعدل، يعينهما قاضى المحمل، وكان عليهما أن يشهدا على العقود الموقعة تحت إشراف القاضى ويحتفظا بها فى سجلات خاصة.. وكان شاهدا المحمل الشريف « لا يعزلان إلا بمرض أوموت لأجل حفظ الوقائع على تعاقب السنين ليكون سجل الحكم مضبوطاً ومحفوظاً لما يرد من الكشف والتحرير لئلا تضيع أمور المسلمين «.. وأشهر من تولى أمر شهادة المحمل لأكثر من عشرين عاماً: الشيخ بدر الدين المحلى الشافعى، والشيخ الجزيرى الأنصارى.

الأمـام والمؤذن

وإلى جانب تقواه وصلاحه، كان يفضل أن يكون الأمام عالماً بالوقت «ميقاتياً » وله دراية بتحديد القبلة فى بعض المراحل، وضبط مسير الركب.. أما المؤذن فيرفع الآذان فى أوقات الصلوات الخمس، وكانا يقومان بواجباتهما الدينية طوال طريق الرحلة وفى عرفات والمزدلفة ومنى، أما فى مكة والمدينة فكانا يتخليان عن مهمتهما للأئمة والمؤذنين المحليين.

(٤)ناظر المواريث الشرعية

كـان مسئولاً رسمياً عن ممتلكات الحجيج الذين انتهى أجلهم أثناء الرحلة أوفى مكة والمدينة، ويحتفظ بسجل للوفيات، ويعود ارتفاع نسبة الوفيات إلى الكوارث الطبيعية كالفيضانات وارتفاع درجة الحرارة والجفاف والعطش والطاعون كما يعود لأسباب أخرى مثل غارات العربان وقطاع الطرق وكبر السن.

(٥) ناظر السبيل

كـان كثير من الحجاج يسافرون مع القافلة دون القدرة على توفير احتياجاتهم ولمساعدة مثل هؤلاء، كان سلاطين المماليك يزودون القافلة بالاحتياجات والمؤن الخاصة من الأموال الخيرية والتى كان يطلق عليها « السبيل » لذلك كان لزاماً اختيار مسئول رسمى ليتولى هذه المهمة، ومثلما كان متبعاً بالنسبة للقاضى، فقد كان اختيار ناظر السبيل من بين قضاة القاهرة، ويصدر مرسوم من ديوان الانشا بتعيينه.. وكان من مهامه تقديم الطعام والماء والأدوية لفقراء القافلة.

الهيئــة العسكرية

ويصحـب الركب المصرى.. خمسمائة من فرسان المماليك، يرأسهم أربعة عشر « سنجقاً » أوقائداً، وهؤلاء القواد يرأسهم أمير الحج، وكانت فرقة المماليك هذه تتولى حراسة المحمل والقافلة وتأمينها طوال الطريق، وعند وصولهم إلى الحجاز، يتولون قيادة قلعة المدينة المنورة !

الهيئــة المالية

وتختـص هذه الهيئة بالشئون المالية.. كدفع مخصصات الحرمين الشريفين، ورواتب الإشراف، وأرباب الوظائف الدينية والإدارية بمكة والمدينة، والمجاورين، ومخصصات الحاميات بالقلاع والحصون على درب الحاج، بالإضافة إلى نفقات الرحلة نفسها..

(١)كاتب ديوان إمارة الحاج

يتولى كتابة رسائل أمير الحاج وأوامره، وصاحب هذه الوظيفة يتغير بعزل أمير الحاج عن وظيفته.

(٢)مباشر الصرة

وهو أهم موظف مالى، والمسئول الثانى بعد أمير الحاج أمام السلطان فيما يخص صرة الحرمين الشريفين، ويتحتم عليه تقديم إشهاد بإيصال المخصصات إلى مستحقيها، موقعاً عليه من أمير الحاج، ويشترط فيه أن يشتهر بالأمانة والعفة وحسن التدبير فى كتاباته ومباشرته لوظيفته وتنظيم الحسابات.

(٣)صراف الصرة

تولى هذه الوظيفة عدد من العلماء والأعيان، وصاحبها مسئول عن صرف الأموال المقررة إلى أصحابها، فيقوم بتوزيعها كما ورد بالحجج والوثائق « على أغوات الحرم المكى وأغوات الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة « ويحرر إشهار بذلك.

الإدارة الطبية

ويتكون هذا الفريق الطبى من طبيب وجراح وأخصائى عيون وطبيب بيطرى ومغسلين للجثث.. ويحمل الفريق الطبى نوعيات مختلفة من العقاقير والأدوية لعلاج الحجاج بالمجان.

مبشر الحج

بمجرد وصول الحجاج إلى منى بعد الانتهاء من أداء شعائر الحج

بعرفات، كان أمير الحج المصرى يرسل عادة مبعوثاً رسمياً يسمى مبشر الحج لينقل إلى القاهرة تقريراً عن الحج والمسائل المتعلقة به، وكان دائماً يغادر مكة فى العاشر من ذى الحجة ليصل القاهرة خلال خمسة عشر يوماً، وكان التقرير يشتمل عادة على معلومات عن الحالـــة العامة بمكة، وحالة الطقس بها، وأسعار السوق، ومعاملة الشرفاء لأمير الحج المصرى، وأماكن القوافل اليمنية والعراقية والحالة العامة للحجاج المصريين . وقد ذكر الأسيوطى أن عادة إرسال مبشر الحج أصبحت تقليداً منذ أيام الخلافة الأموية والعباسية، كما أعطى تفسيراً مثيراً عن أسباب استقرار هذه العادة، هوانه كان معتقداً أن قرب خروج الدابة، وهى من علامات ساعة البعث، ستحدث أثناء إقامة الحجاج بمنى !.. وانها ستخرج من جبل أجياد وعلى ذلك فأن المبشر كان يرسل ليعلن عن سلامة الحجاج.

وكـان المبشر كقاعدة عامة يختار من بين كتائب المماليك الذين يعملون فى خدمة أمير الحج، وفى عام ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م اختار أمير الحج الدوادار الأول، والذى كان هونفسه قائد قافلة المقدمة مبشراً، أما فى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م كان المبشر هوابن أمير الحج.

الإدلاء

كـان يسافر كل عام على رأس قوافل الحجاج المصرية مجموعة من المرشدين من الذين كانوا على دراية ومعرفة دقيقة بالطرق الصحراوية، وكان واجبهم أن يقودوا القوافل من القاهرة طوال طريقها المعتاد إلى الأراضى المقدسة والعودة منها . وقد ذكر بعض المؤرخين أن أملاكاً معينة كانت تخصص بمنطقة الشرقية بمصر كوقف للأنفاق على مرشدى قوافل الحج المصرية، وترجع هذه الحقيقة إلى أن هذا المنصب كان وراثياً.

الخدمات المعاونة

(١) أمير آخور المحمل :-

كـان يوجد على الأقل أربعة ضباط (باشات) يحملون لقب أمير آخور فى القافلة المصرية، وكان الأول يشرف على الخيول فى اسطبل أمير الحج بينما كان الآخرون مسئولين بصفة عامة عن الجمال التى تنقل المؤنة والمعدات التى تصاحب أمير الحج.

شــــاد السنيـــح

وكـان مشرفاً على المؤنة الغذائية فى القافلة لإعاشة أمير الحج ومساعديه الرسميين والحرس والخدم.

شــــاد المطبـــخ

وهـو المسئول عن مطبخ أمير الحج، وكان يشرف على توزيع الوجبات فى المحطات الرئيسية على طول الطريق كما كان يخضع الطباخون لإشرافه.

(٤)شــــاد السقائيـــن

هـو المشرف على حاملى المياه. كما يشرف على توزيع المياه بين الرسميين فى القافلة، وفى بداية الحكم العثمانى لمصر كانت القافلة، وفى بداية الحكم العثمانى لمصر كانت القافلة تزود بحوالى ١٦٠٠٠ قربة ماء، وكان يخصص لها ١٢٠ جملاً لحملها، وكان أمير الحج مسئولاً عن توفير القرب والجمال.

وكانـت السمة المعتادة لحاملى المياه أن يهبطوا على جنبات البئر،

وكانوا يسقون الجمال ويملأون القرب، وكان لكل أمير أوشخص مميز وعائه الخاص الذى يسقى منه جماله وجمال أتباعه وتملأ منه قربهم، أما بالنسبة لباقى الحجاج فكانوا يعقدون اتفاقيات مع حملة الماء السقايين لسقى جمالهم وملأ قربهم مقابل أجر محدد.

(٥) شـــاد المحمـــل

وكـان مسئولاً عن المحمل أثناء الرحلة، وكان واجبه الرئيسى إخلاء الطريق طوال الرحلة للجمل الذى يحمل المحمل وعلى وجه الخصوص فى الممرات الضيقة حيث تتزاحم الجمال فى القافلة.

(٦) المقدمون على جمال النفر

وهـم رؤساء سائقى الجمال فى قاطرة أمير الحج، وكلمة جمال النفر أوالنفرة كما يشير « الجزيرى » تدل على سلالة من الجمال الضخمة التى كان يستخدمها أمير الحج لنقل المؤنة والمعدات.

ويذكر الجزيرى اسم « قانبار » على أنه أخر مقدم استخدم فى الحجيج المصرى تحت حكم المماليك الشراكسة، كما يذكر « القلقشندى » أن من بين المسئولين الرسميين فى القافلة، والذين كانوا يتسلمون الخلعة فى يوم بدء المحمل فى شوال « المقدمون » وذلك أثناء حكم المماليك، ولكنه لم يفصل طبيعة مسئولياتهم فى القافلة كما أن المقدمين كانوا يستخدمون فى القافلة للتعاقد مع أصحاب الجمال لنقل المحمل والكسوة والمعدات والمسئولين عنها وفرق الحرس والمرافقين الشخصيين لأمير الحج، كما كانوا يشرفون على سائقى الجمال ويراقبون التحميل والإنزال أثناء راحة القافلة فى المحطات على طول الطريق.

(٧)مقدم المشاعلية والجشامة

وكان يشرف على حملة المشاعل ويعرفون بالضوئية أوالمشاعلية وحرس السجن الذين كانوا يعرفون بالجشامة فى ركب أمير الحج ومن بين واجبات المشاعلية والجشامة تجميع خشب الحريق فى مكان المطبخ واستخدامه كمشاعل للقافلة، وكان يستخدم بصفة رسمية ٢٤ مشعلاً للقافلة منها ٥ مشاعل تضاء بالزيت والباقى بالخشب، وكان من بين أتباع المقدم السياف والمبيت، وكانت واجبات الأخير نشر تعليمات الأمير بين الحجاج والقيام بعمل التنبيهات المنتظمة أثناء الليل عند توقف القافلة بالمحطات على طول الطريق لتنبيه الحجاج عن الحالة العامة للمحطة وعما إذا كان هناك ضرورة لاتخاذ احتياطات إضافية لحماية جمالهم وممتلكاتهم الشخصية.

(٨)مقدم الهجانة والشعارة

وهوالمسئول عن السروج والألجمة وملحقاتها الخاصة بجمال اسطبل أمير الحج، كما كان يشرف على الرجال المسئولين عن الاعلاف والجمال التى تحملها.

(٩)مهتار الطشتخانة

وهذه الوظيفة من الوظائف الهامة أثناء حكم المماليك الشراكسة، فقد كان مهتار الطشتخانة مسئولاً عن الملابس الخاصة وكذا السلاح والأوانى والشموع ... التى تخص أمير الحج، كما كان مسئولاً عن الملابس الرسمية والعباءات والأثواب التى يحملها أمير الحج لإهدائها لرؤساء بعض القبائل على طول طريق الرحلة ولأمراء وقضاة مكة والمدينة ولأمير ينبع.

وبالإضافة إلى الواجبات السابق ذكرها، كان المهتار يوكل إليه منصب المحتسب على طول الطريق وأثناء بقاء القافلة فى مكة والمدينة وينبع، وكان يعرض هذا المنصب على مسئول يختاره مقابل ٥٠ دينار.

(١٠) مهتار الشرابخانة

وكـان يدير البعثة الرسمية المرافقة لأمير الحج وكان يشرف على الأطباء والكحالين والجراحين الذين سبق ذكرهم.

(١١) مهتار الفراشخانة

وكـان مسئولاً عن خيام أمير الحج والرسميين والحرس والخدم المسئولين عنها أثناء الرحلة، وكان يرحل مبكراً قليلاً عن القافلة الرئيسية حتى يمكن إعداد الخيام قبل وصول الأمير وأتباعه إلى محطة.

الـزردكـاش

وكـان يشرف على الأسلحة ومعدات الحرب التى تصاحب أمير الحج للدفاع عن القافلة، وكان تحت إشرافه مسئول يسمى النفطى أوالبارودى الذى كان واجبه إعداد الأسلحة النارية والمفرقعات لتوزيعها فى محطات معينة على طول الطريق إلى منى.

(١٣) مهتار الركابخانة

وكـان مسئـولاً عن سـروج الخيول والألجمة وأكسية الخيول المزركشة .... ألخ فى أسطبل أمير الحج.

(١٤) شعراء الربابة

كـان يصاحب أمير الحج اثنان من الشعراء المحترفين وكانا يرحلان وراءه لتسليته بالأغانى بمصاحبة الربابة.

(١٥) الطبل خانة

كانت الفرقة الموسيقية التى تصاحب أمير الحج المصرى أثناء حكم المماليك تتكون من ٢ ضاربين على الطبول و٢ نافخين فى الأبواق وعازف نفير، وبالإضافة إلى هؤلاء فقد كان للمحمل فريقه الموسيقى الخاص الذى يتكون من سبعة من قارعى الطبول.

المخبـــزى

وكــان واجب الخباز ومساعديه هوإعداد الخبز لأمير الحج والرسميين والحرس فى المحطات الرئيسية على طول الطريق.

(١٧) الكيالون والسمسار

بالرغم من أن هذا اللقب يعنى مجموعة من كيالى الحبوب ووسيط، إلا أن الجزرى يشير إلى مسئول رسمى عن الحبوب الخاصة بأمير الحج والتى من بين واجباته مراقبة الطحن والنخل ونقل الحبوب فى قاطرة أمير الحج.

(١٨) نجار السنيح

وهـوالنجار المسافر مع القافلة لرعاية الصناديق والسحارات التى تنقل فيها المواد الغذائية الخاصة بالقافلة.

نجـــار الكــور

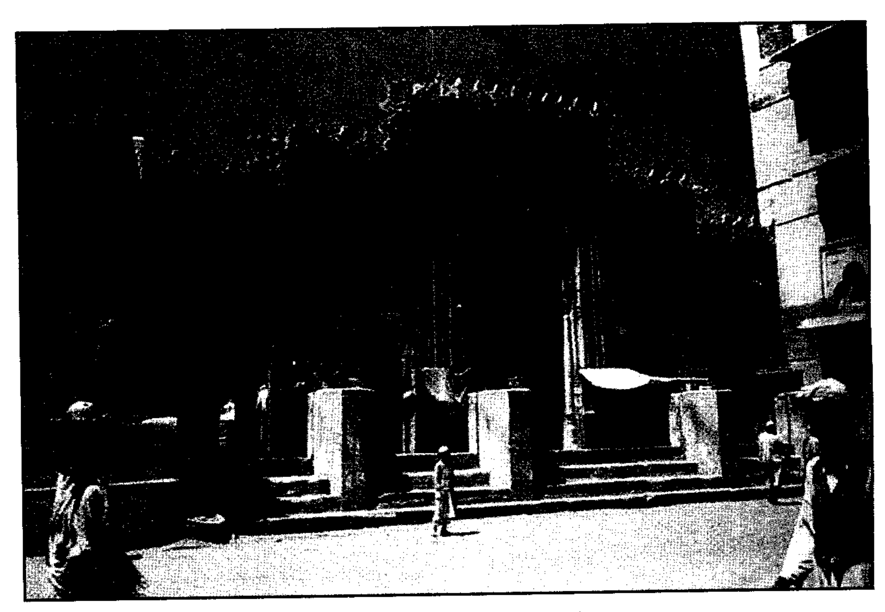
بالإضافة إلى النجار السابق ذكره، كانت البعثة الرسمية لأمير الحج تضم نجاراً آخر مسئولاً عن سروج الجمال المعروفة باسم الكور.

خولى الأغنـــام

وكـان مسئولاً عن قطيع الأغنام المصاحب للقافلة لتزويد مطبخ أمير الحج بما يلزمه من لحوم خلال الرحلة.

(٢١) المشرون بالدار

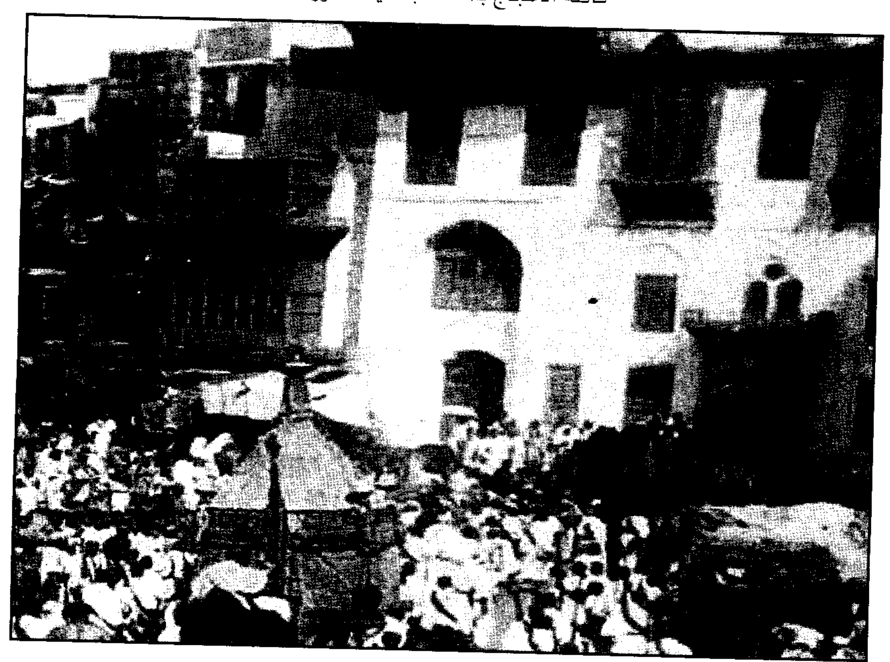
وكمـا يدل اسمهم، فقد كانت لديهم معرفة دقيقة بالطرق وعلى ذلك كانوا يعلنون الحجاج مقدماً عن وصولهم إلى المحطات المختلفة على طول الطريق.



باب الصفا بالحرم المكى الشريف

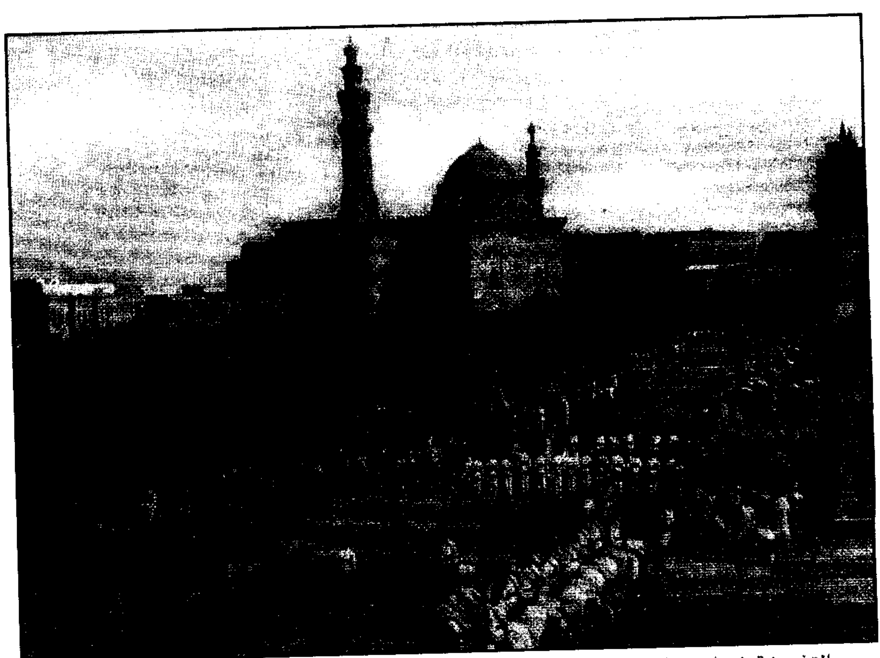


قافلة الحجاج بالمناخة بالمدينة المنورة



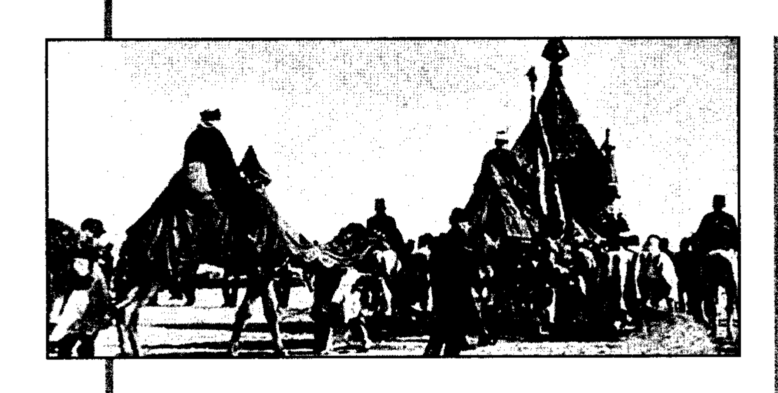


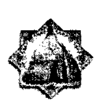
فى مخيم الحج الشامي بمكة المكرمة



التشريفة فى استقبال المحمل وموكب الخديوي عباس الثاني عند عودته من الحج عام ١٩٠٩

درب الحج المصري





إتساع خريطة العالم الإسلامى يؤكد المعنى الكامل لمفهوم الآية الكريمة « يأتين من كل فج عميق ».. والتراث الحضارى الذى شكلته « طرق الحج » أو « طرق الإيمان » أسهم فى تعميق التواصل بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم.



وقــد أصبحت تلك المواقع الجغرافيــة أو« المواقيت » كما يطلق عليها فى أدبيات الحج، مراكز تتوفر على كل ما يلزم القافلة من مساجد وفنادق ووكالات وطواحين.. وما دونه الرحالة المسلمون عن تلك المنازل والمسالك، وما كانوا يجدونه فيها من حركة فكرية وتطلع إلى العلم وصلة الرحم، ما يعبر تماماً عن أنماط المجتمع الإسلامى.

ويقــول العلامة المغربى الكبير د. « عبد الهادى التازى » والذى التقيت به منذ سنوات بمكتبة المعهد الفرنسى بالقاهرة: « لقد أجمعت التأليف التى تناولت موضوع طريق الحاج على إبراز دور القاهرة فى تفعيل هذا الركن من أركان الإسلام، تفعيله بما كانت تقوم به عبر التاريخ من تذليل المصاعب التى تعترض الحجاج وخاصة فى الصحراء التى طالما كانت مصدر خوف للحجاج.

وكمــا سحرت الإسكندرية بماضيها وحاضرها كل الحجاج الذين اتخذوا منها محطتهم الأولى نحوالجزيرة العربية.. كانت الإسكندرية بالنسبة للمارين عليها بمثابة معهد يلقن الناس أسس الحضارة وكيف لا وهى أم المدارس ومرقد بطليموس الذى لا يوجد مرجع جغرافى عربى لا يستنير به الإسكندرية التى كانت متحفاً للمارين بها يجدون فى معالمها وحتى فى مقابرها ذخيرة حية تزيد فى حسهم ومعناهم..».

وإذا تتبعنا إبداعات الرحالة والجغرافيون المسلمون نجدها تكشف أهمية تلك المحطات والدروب، وتعبر بوضوح عن البعد الحضارى لهذا الركن الهام من أركان الإسلام.

فـأن رحالة الإسلام « ابن بطوطة » وهوفى طريقه فى المغرب زودنا بلائحة من المراكز العلمية. فمن طنجة إلى الإسكندرية زرنا معه عدداً من المدن التى كانت مستعدة لاستقبال الحجاج وتكريمهم وتزويدهم بمختلف الوسائل التى تساعدهم على التنقل من محطة إلى أخرى دون أن يتعرضوا إلى ما قد يهدد أمنهم وفى كل هذه المحطات نسمع عن شخصيات علمية تقوم بواجبها فى تنوير الرأى.

ومــن الإسكندرية إلى ساحل البحر الأحمر عبر القاهرة وأسيوط وقوص وأسوان نقف على شبكة من المراكز التى يزورها الرحالة غير غافل عما يوجد فيها من زوايا وخانقات تتنافس على إرضاء الحجاج والسهر على راحتهم، سلسلة من أسماء العلماء ممن كانوا زينة هذه المحطات التى يعبرها الحاج.

طريق الحج المصرى منذ عصر الدولة الطولونية حتى عصر سلاطين المماليك

امتازت مصر بشواطئها الشرقية الطويلة الممتدة على البحر الأحمر، وقد حباها الله بهذا الموقع الاستراتيجى أن تكون همزة الوصل بين جيرانها سكان الجزيرة العربية، ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندى. ونستدل على ذلك يقول المقريزى فى وصف مصر إذ يقول « فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها، فساحلها بالقزم يحمل منه إلى الحرمين وجدة واليمن والهند والصين وعمان والسند ».

وقــد أدى البحر الأحمر دوراً هاماً فى نقل الحجاج والبريد نظراً لاهتمام الخلافــة الإسلاميــة بتأمين سلامة الحجاج وعمارة الطرق التى يسلكونها وتوفير الراحة فيهــا.

واهتــم حكام مصر بمنطقة البحر الأحمر وأسسوا سياسة تقليدية ثابتة تقوم على تأمين وضمان سلامة الحجاج، وكثيراً ما دفعتها تلك السياسة فى فترات قوة سلاطينها إلى التدخل عسكرياً فى حكم تلك البلاد.

وقــد حدثنا المؤرخ العلامة « المقريزى » عن طريق « أيلة » الطريق البرى عبر سيناء الأكثر ارتياداً من الحجاج، وأيلة كانت فى موقع « العقبة » الحالية، فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر إلى « القلزم » فأما أن يركبوا البحر إلى « الجار ط على ساحل المدينة المنورة، أوأن يسيروا إلى أيلة ثم إلى بلاد الحجاز...

وكانـت قوافل الحجاج تسير على هذا الطريق على النحوالذى وصفه « جلال الدين السيوطى » عن ابن فضـل، قال « فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والزاد والأشربة والأدوية والعقاقيـر والأطباء والكحالين والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضى والشهود والأمناء فى أكمل زى وإذا نزلوا منــزلاً أورحلوا مرحلاً تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن للناس بالرحيل، فأذا خرج الركب من القاهرة نزل ببركة الحج على مرحلة واحدة فيقيم بها ثلاثة أيام أوأربعة، ثم يرحـل إلى السويس فى خمس مراحل، ثم إلى نخل فى خمس مراحل، ثم إلى أيلة فى خمس مراحل، فينزل منها إلى حجز بحر القلزم.

أولاً : طريــق العقبــة

والــذى ظل دائماً الأكثر ارتياداً، ويبدأ من « الفسطاط » ثم « البويب » وهى نقب بين جبلين، وردت فى معجم البلدان بأنها مدخل أهل الحجاز إلى

مصر، ثم إلى « أم سعد « إلى « عجرود « على مسافة عشرين كيلومتر من الشمال الغربى لمدينة السويس، ثم بعد ذلك يتجه الركب عبر الصحراء الشرقية لمصر حتى « جسر القلزم « فيعبر شبه جزيرة سيناء إلى مدينة « نخل « حتى يصل إلى « أيله « على رأس خليج العقبة وهى المعروفة الآن بـ « إيلات « !.. وعندها يفترق الطريق إلى اثنين: طريق البر وطريق البحر أوما يعرف بطريق الساحل.

أمـــا طريق البر فمن « أيله « إلى « شرف البعل « وهى أيضاً « الشرف « وتتبع حالياً منطقة بتوك، ومنها إلى « مدين « حيث مغارة « شعيب « عليه السلام، ويقال بأن ماؤها هوالذى سقى منه « موسى « غنم بنات شعيب، ومن مدين إلى « فالس « ثم إلى واحة « الأغر « أو« الأعر « كما يشير علامة الجزيرة حمد الجاسر، ومنها إلى «الكلابية» إلى « بدا « إلى « ألشغب « ومنها إلى « السرحتين « ثم إلى « السقيا « وتعرف بسقيا يزيد الجزل، وهى ملتقى طريق الشام ومصر.. ومنها إلى « عتاب « إلى «المروة» بوادى القرى ومنها إلى وادى « المر « فى بطن إخم، ثم إلى « السويداء « إلى «الآراك « وهى واد متسع يكثر به شجر الآراك الأخضر الناعم، ومنها إلى « ذى خشب» على مسيرة ليلة واحدة من المدينة المنورة.

ثانياً: طريـق الساحـــل

ويبـــدأ هذا الطريق من آيلة إلى « عينونا « وهى عيون القصب فى حوض وادى عينونه إلى « المصلى « ويشير حمد الجاسر بقوله: ربما أنها كانت « الصلاهى « ثم حرفت إلى المصلى، ومنها إلى « البنك « ثم إلى « ظبا « وتسمى أيضاً: ظبى وظبه وضبا وهى بين المويلح والأزلم، ومنها إلى « المرة « إلى « عونيد « بالقرب من مدين ومنها إلى « وادى الوجه « وبها قلعة لحراسة الحجيج ثم إلى « منخوص « والتى اشتهر أهلها بعيد اللؤلؤ، ومنها إلى «

الحوراء » وهى من مناهل الحجاز ومنها إلى «قصيبة » أوقصيبة الحجاج أسفل وادى الروم بين المدينة وخيبر، ثم غلى « البحرة » من أعمال الطائف ومنها إلى « ينبع » وهى موضعان متقاربان أحدهما « ينبع البحر » والأخرى «ينبع النخيل « ثم إلى « الجار » وهى فرضة لأهل المدينة ترفأ إليها السفن من الحبشة ومصر وعدن ونجد.. ثم أخيراً إلى المدينة المنورة، ثم ينحنى الطريق من الشمال إلى الجنوب غربى شبه جزيرة العرب بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، ويمتد الطريق الرئيسى جنوباً إلى مكة المكرمة، وقد استمرت قوافل الحجيج على هذا الطريق أكثر من أربعة قـرون.

ثالثاً: طريـق البحــر

وقــد بـدأ الحجيج فى استخدام هذا الطريق منذ القرن الخامس الهجرى، حيث يسلك الحجيج نهر النيل من « الفسطاط » إلى « أسكر » وهى قرية قديمة شهيرة تتبع مركز الصف بالجيزة، ومنها إلى « المنيا » أومنية ابن خصيب، ثم إلى « منفلوط » من أعمال أسيوط، ومنها إلى « أبوتيج » ثم إلى « أخميم » وكانت من المدن الهامة فى عصر الفراعنة، ثم إلى « البلينا » غرب النيل بسوهاج ومنها إلى مدينة « قنا » الشهيرة ثم إلى مدينة « قوص » التى قال عنها « ابن دقماق » أنها باب مكة واليمن و

النوبة وسواكن وبها ستة عشر مدرسة، ومنها تبدأ رحلة برية إلى « عيذاب » على ساحل البحر الأحمر، فيعبر الركب إلى « جدة » ومنها إلى مكة المكرمة.

طريق الحاج فى العصر العثمانى

كــان طريق الحاج المصرى خلال العصر العثمانى ينقسم إلى طريق رسمى تسير فيه قافلة الحاج المصرية على رأسها الأمير، ومزودة بالناحية

الأمنية ومتطلبات الحجيج، وطريق غير رسمى لم يطرق إلا فى أحوال نادرة. وفى ظروف صعبة فى مصر، للأغنياء الذين يريدون الارتحال إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، والعودة سريعاً، وقد كان طريقاً بحرياً من السويس.

الطريـق البــرى

تشيـر المصادر التاريخية إلى أن بداية استخدام هذا الطريق كان فى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨ م عندما أمر السلطان الظاهر بيبرس بأن تسلك قافلة الحج هذا الطريق البرى، تحت إشراف « أمير الحاج « ومعه مخصصات الحرمين الشريفين، ويمر هذا الطريق بعدة مراحل تبدأ من القاهرة حتى السويس ثم إلى « نخل « إلى « أيله « ثم « العقبة « إلى « حقل» الشهيرة بنخيلها وطيب آبارها ثم غلى بر « مدين « ومنها إلى « مغارة شعيب « إلى «عيون القصب « ثم « البنك « إلى « الأزلم « ثم « الوجه « ومنها إلى « أكرى « إلى «الحوراء « ومنها إلى « بنط « إلى « الخضيرة « من أعمال ينبع ثم إلى « ينبع « ومنها إلى « الدهناء « إلى « بدر « ثم إلى « قاع البزوة « وتسمى طرق النجحان بين بدر ورابع وفيها يبيت الركب ثم يرحل صباحاً إلى « رابغ « ثم إلى « عقبة السكر « التى تشتهر بفاكهتها ومنها إلى « خليص « بين مكة والمدينة وهى قرية بها حصن ونخيل وبركة كبيرة ثم إلى « عسفان « وهى من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، ومنها إلى « بطن مر « إلى مكة المكرمة... ثم إلى « منى « وبها مسجد الخيف وعندها جمرة العقبة، وعقب إشراق الشمس يرحل الركب إلى « نمرة « وكانت منزل النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع، وبعد جمع صلاتى الظهر والعصر يصعدون إلى « جبل عرفة « أوعرفات وهوالموقف فى الحج، وإن كانت الغالبية لا ينزلون منى إلا بعد عرفة فيذهبون إلى « بدر « ثم « الصفراء « ومنها إلى « ذى الحليفة « ومنها سقاية أهل المدينة.. إلى أن يصل الركب إلى المدينة المنورة.

ولــم يكن هذا الطريق البرى هوطريق قافلة الحاج المصرية فحسب

بل كان طريقاً لحجاج المغرب، حيث كان يلحق بالركب المصرى خلال هذا الطريق بل كل ركب بأميره، الركب التونسى، والجزائرى، والمغربى، وكذلك السودانى، والفزانى، حيث يصلون إلى مصر قبيل رحيل الركب المصرى، حيث ينضوون تحت لواء أمير الحج المصرى، وبعضهم كان ينتظر فى القاهرة منذ عام لتلقى العلم فى رحاب الأزهر الشريف حتى موعد رحيل قافلة الحج.

طريق الحجاج المغاربة

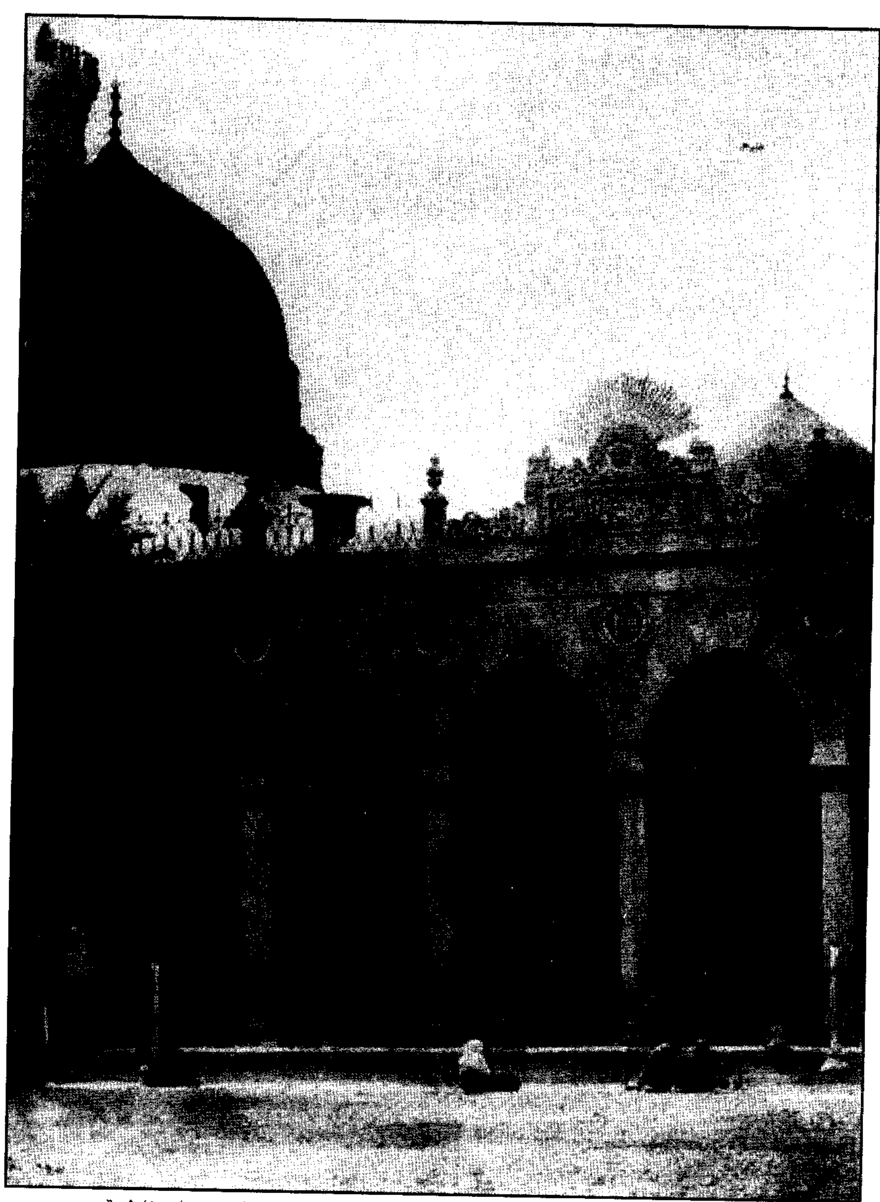
ويسلك الحجاج المغاربة نفس طريق الحج المصرى بالتقريب، وقد أمدنا الرحالة الشهير « ابن جبير » بوصف لهذا الطريق عند حديثه عن هؤلاء الحجيج فى القرن السادس الهجرى، فذكر أنهم يقصدون مصر عن طريق البحر حتى يصلوا إلى ثغر الإسكندرية ومنها تتوجه القافلة إلى القاهرة حيث ينزلون بمسجد أحمد بن طولون الذى جعله السلطان مقراً لسكن الحجاج المغاربة وأقامتهم أثناء مرورهم بمصر وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر وعندما يتم اجتماعهم يسيرون من مصر إلى قوص يقطعونها براً أوعن طريق النيل فى نحوعشرين يوماً، والقرى فى طريقهم متصلة على شاطىء النيل. فمنها قرية تعرف بـ « أسكر » فى الضفة الشرقية من النيل يحكى أن فيها كان مولد النبى موسى عليه السلام، ومنها ألقته أمه فى اليم وهوالنيل، وبقرب النيل المدينة القديمة المنسوبة ليؤسف الصديق وبها موضع السجن الذى أقام فيه، وأهواء الطعام التى أختزنها، ومنها إلى الموضع المعروف بمنية ابن الخصيب وهى مدينة على الشاطىء الأيمن للنيل كبيرة الساحة متسعة المساحة كثيرة الأسواق والحصاصات وسائر مرافق المدن، وعلى مقربة منها المسجد المنسوب لإبراهيم الخليل... وفى الطريق بالشاطىء الشرقى للنيل « جبل المقلة » وهونصف الطريق إلى « قوص ».. ويجتاز الحجيج مدينة « منفلوط » ومنها إلى « أسيوط »

اشهر مدن صعيد مصر ثم « أبى تيج » ومنها غلى مدينة « أخميم » بها مسجد ذى النون المصرى وآثار فرعونية هامة.. ثم يجتاز الحاج « منشأة السودان » ومنها إلى « البلينا » ومنها إلى « دشنا » ذات الأسوار ثم إلى « دندره » الشهيرة بكثرة نخيلها، ومنها إلى « قنا » المدينة البيضاء حسنة المنظر ثم إلى « فقط ».. ثم الوصول إلى مدينة « قوص » ثم تأخذ القافلة طريقها إلى « المبرز » حيث تعد الأبل لشد الرحال إلى « عيذاب » عبر الصحراء الشرقية لمدة خمسة عشر يوماً [1]، وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب نحوشهر أوأكثر فى انتظار المراكب التى تحملهم إلى جدة، وتشتهر هذه المراكب باسم « الجلاب » وهى الوسيلة الوحيدة التى يكتسب منها أهل عيذاب أرزاقهم، وتصنع « الجلاب » من خشب يستورد من اليمن والهند ويصنع بطريق التعشيق وبدن استخدام المسامير الحديدية....

إن البحث فى طرق الحج - كما يشير عبد الهادى التازى - بحث عن سر عظيم من أسرار إشراق الإسلام وعظمة حضارته.



مشهد عام للمدينة المنورة عام ١٨٨٠م



صحن الحرم النبوي لأحد أروقة المسجد النبوي والقبة الخضراء وبستان فاطمة



مخيم الحجاج فى منى



مخيم الحجاج فى عرفات ١٨٩٠

مسلمون وأوربيون داخل الكعبة..!



جزء من الكعبة المشرفة (القبج البيضاء فى خلفية الصورة)
ومقام ابراهيم، وباب بنى شيبة وجزء من بئر زمزم



جرت العادة بغسل داخل الكعبة المعظمة منذ العام الثامن للهجرة، حتى تحول إلى سنة إسلامية اتبعها الخلفاء والسلاطين والملوك، وكان أول من غسل داخل الكعبة هوالنبى . صلى الله عليه وسلم . فى يوم فتح مكة المكرمة، بعد أن هدم الأصنام وأزال عنها معالم الشرك ورموزة، لتخلص مكة المكرمة لعبادة الله وحده.



قال الفاسى: «فلما قضى . يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . طوافه دعا بعثمان بن طلحه فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها»، كما يروى فى موضع آخر عن أسامة بن زيد قال: «دخلت مع رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فى الكعبة ورأى صورا فدعا بدلومن ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول: «قاتل الله قوما يصورون مالا يخلقون».

ثم صار غسيل الكعبة المعظمة بعد ذلك عادة تجرى وسنة متبعة، وفى العصور السابقة كانت الكعبة تغسل من داخلها أكثر من مرة فى السنة فكانت تغسل فى اليوم التالى لليوم التاسع والعشرين من رجب، وفى اليوم السابع والعشرين من ذى القعدة من أجل الحج، كما كانت تغسل فى الأسبوع الأول من المحرم، وأما فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى فكانت تغسل الكعبة من داخلها مرتين فى العام الأول فى أواخر شهر ذى القعدة والثانية تكون غالباً فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وأما فى الوقت الحاضر فتغسل الكعبة مرة فى موسم الحج وأخرى فى شعبان.

ويرجع السبب فى تعدد مرات غسيل الكعبة المشرفة من داخلها فى العصور السابقة . فيما يبدوإلى أن السدنة كانوا يسمحون لبعض الحجاج بدخول الكعبة فى موسم الحج وفى موسم العمرة الرجبية وفى المناسبات الدينية مقابل الحصول على بعض المنح والاعطيات، فكان ذلك يستلزم

غسل داخل الكعبة بعد انتهاء تلك المواسم، أما فى الوقت الحاضر فلا يسمح للحجاج ولا للمعتمرين فى مواسم العمرة بدخول الكعبة، باستثناء بعض كبار الشخصيات الاسلامية مثل رؤساء الدول الاسلامية، ومن ثم فلم يكن هناك داع لغسل جوف الكعبة إلا مرة واحدة أومرتين فى العام مع تطييبها من الداخل والخارج خاصة فى موسم الحج عند تغيير كسوة الكعبة بخلع الكسوة القديمة وتلبيسها الكسوة الجديدة.

أما كيفية غسل الكعبة فتفصيلها كالآتى: فى صباح اليوم المعين نغسل الكعبة يحضر رئيس السدنة إلى الحطيم بعد شروق الشمس بلحظة ومعه السدنة آل الشيبى فيفتح باب الكعبة المعظمة ؛ ثم يأتى أتباع السدنة فيها ماء الورد وقوارير فيها عطر الورد، وبالمباخر والعنبر والعود والند، ويؤتى بالأزر وهى تكون غالبا من النوع الذى يسمى «بالشال الكشميرى» لأجل الاتزار بها حال غسل الكعبة المعظمة.

وقد جرت العادة أن يدعورئيس السدنة ولاة الأمر من ملوك أوأمراء أوولاة، ووزراء الدولة والقاضى ورؤساء الدوائر الى غسل الكعبة، وقبل حضورهم بلحظة يكون كل مواد الغسل حاضرة، وتحضر مديرية الأوقاف عادة المكانس، ويحضر شيخ الزمازمة الموكلين بسقاية الحاج ماء زمزم سطولا مملوءة من ماء زمزم الى الكعبة فيتسلمها منهم السدنة وأتباعهم ويدخلونها الكعبة المعظمة.

وبعد استكمال كل ذلك بداخل الكعبة المشرفة يحضر المدعوون لغسل الكعبة بداخل الكعبة، ويأخذ كل واحد منهم ازارا فيرتديه، ثم يحمل المكنسة ويباشر الجميع غسل الكعبة المعظمة بماء زمزم مضافا اليه ماء الورد، ثم بعد اتمام غسل أرض الكعبة وبعض أطراف جدرانها السفلى يباشرون مسح الجدران الى ارتفاع قامة الانسان بماء الورد أولا، ثم يطيبونها بعطر الورد،

ويوضع ذلك فى طاسات من معدن أبيض أوبلور، وبعد انتهاء عمل التطييب بالعطر يضعون العنبر والعود والند فى مباخر بديعة فاخرة، وتبخر بها عموم أطراف الكعبة وجميع جوانبها بعد تجفيف أرضها بالاسفنج، وبعد اتمام غسل الكعبة المعظمة وتطييبها يقسم السدنة تلك المكانس على الناس المجتمعين عند باب الكعبة.

وعقب إتمام عملية الغسل والتطييب، تكسى الكعبة المعظمة بالكسوة الجديدة، وقد أثر عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قولها: «أطيب الكعبة أحب إلى من أن أهدى اليها ذهباً وفضة» وقولها: «طيبوا البيت فان ذلك من تطهيره»، وقد كان أول مرة تطيب فيها الكعبة المشرفة بصورة منتظمة فى العصر الأموى، فكان معاوية بن ابى سفيان أول من طيب الكعبة بالخلوق والمجمر، فأجرى لها وظيفة الطيب عند كل صلاة، وكان يبعث لها بالمجمر والخلوق مرتين فى السنة فى موسم الحج وفى رجب ثم سار على نهجه الولاة من بعده.

ثم اهتم عبدالله بن الزبير بتطييب الكعبة، فعندما فرغ من بنائها، خلق ظاهرها وباطنها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها ثم كساها، وكان يجمرها كل يوم برطل من الطيب وفى يوم الجمعة برطلين، كما كان عبد الملك بن مروان يرسل كل عام الكسوة للكعبة ويبعث أيضاً بالطيب والمجمر اليها وإلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتجدر الإشارة إلى أن أول من كسا الكعبة المشرفة من ملوك مصر بعد زوال الدولة العباسية السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى، وكانت أول كسوة له سنة ٦٦١ هـ فكسا الكعبة وسير قافلة الحج من البر عبر طريق سيناء بدلا من صحراء عيذاب، ولما حج سنة ٦٦٧ هـ غسل الكعبة بيده بماء الورد، وقد شوهد بباب الكعبة محرما يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية

ليصعدوا، وعمل الستور الديباج للكعبة وللحجرة النبوية الشريفة، وقد حطب فى ذلك الموسم كرة المجد اسماعيل الواسطى والسلطان حاضر، فقال فى الخطبة: «أيها السلطان انك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان، لكن تدعى باسمك وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه الا أنت، فإنك تسأل عن رعاياك، فاجعل كبيرهم أباً وأوسطهم أخاً وصغيرهم ولداً » فاستعذب وعظه وأجزل عطاءه !

ابن بطوطة داخل الكعبة

وفى إطار وصفه لـ «الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيماً وتكريماً » كتب رحالة الاسلام «ابن بطوطة» عن درج الصعود ومراسم فتح باب الكعبة ووصف ما بداخلها: «... وباب الكعبة المعظمة فى الصفح الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار. وذلك الموضع هوالمسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء، وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار، وهومصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعه، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة، ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، ورسمهم فى فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم، ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين. ثم يدخل سائر الشيبيين، ويسدون الباب أيضاً ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفى اثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد

مبسوطة إلى الله تعالى، فإذا فتح كبروا ونادوا: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين، وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خُطاً، وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى. وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض، وهى تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً، وتكسوجميعها من الأعلى إلى الأرض، ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم».

والبتنونى أيضاً..!

أما محمد لبيب البتنونى صاحب «الرحلة الحجازية» والذى رافق «الجناب العالى الخديوعباس باشا حلمى الثانى» فى رحلة الحج التاريخية عام ١٩٠٩م وبعد أن تحدث عن تاريخ مكة المكرمة والحرم المكى وعمارته عبر العصور، والكعبة المعظمة وبناء ابراهيم عليه السلام لها، كتب عن «شكل الكعبة» وما بداخلها: «أما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية وهى التى على يمين الداخل، وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها. وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القافلى، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من أخرى، وقطر عمودى نحوثلاثين سنتيمتراً. وهذه الأعمدة من زمن عبدالله بن الزبير وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن، ويقال أن عليها كتابة محفورة فيها ولكنى لم أرها، وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الاسلام ستة أعمدة ولا أدرى ان كانت من البناء أومن الخشب، ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها «الله جل جلاله»، قد أهداها اليها

السلطان عبدالعزيز رحمه الله، وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى عليه الصلاة والسلام.

ويحيط ببناء البيت من الداخل إزاز من الرخام المجزع على ارتفاع نحومترين، وقد وضع فى الحائط الغربى ألواح محفور فى الأول منها: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن عمر بن على رسول، اللهم أيده يا كريم بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم». ومكتوب حول هذه اللوحة: «رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه لى بتاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». وإلى جواره لوحة مكتـــوب فيها: «أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف». ثم لوحة أخرى فيها «ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم، تقرب إلى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الأشرف أبوالنصر برسباى خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة». وفى لوحة أخرى «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الامام الاعظم أبوجعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله فى شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ثم لوحة أخرى منقوش فيها «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير إلى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج فى البرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مرادخان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته

فى آخر شهر رمضان المبارك المسطر فى سلك شهور سنة أربعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية». وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب فيه «أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبوالنصر قايتباى خلد الله ملكه يارب العالمين، عام أربع وثمانمائة من الهجرة». وفى الجدار الشمالى مكتوب على باب التوبة هذه الابيات:

قد بدا التعمير فى بيت الالـه ..قبلة الاسلام والبيت الحرام

أم خاقان الورى مصطفى خان ..دام بالنصر العزيز المستدام

بمباشرة أحمد بك فى سنة تسع ومائة وألف». وبلغنى أن فى البيت حجراً مكتوباً بالكوفى ويقال أنه قديم جداً وانه من القرن الاول للهجرة، وان صح ذلك كان من عمل الحجاج ابن يوسف. وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة، وهومن الاطلس الاخضر المزركش بالقصب، يأتى اليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة. ومعلق بسقف البيت كثير مما بقى من الذخائر التى أهديت اليه، ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضية لا تقل عن مائة، ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٨٤ هـ».

وحدد «البتنونى» الأيام التى تفتح فيها الكعبة المشرفة، فكتب: وتفتح الكعبة فى العاشر من ربيع الأول للدعاء للسلطان من غير ان يدخلها أحد من الزائرين، وفى صبيحته للرجال، وفى مسائه للنساء، وفى العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالى، وفى أول جمعة من رجب للرجال، وفى تاليه للنساء، وفى صباح تاليه للرجال، وفى مسائه للنساء، وفى ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان، وفى صباح تاليه للرجال، وفى مسائه للنساء، وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال، وفى تاليه للنساء، وفى السابع عشر منه للدعاء للسلطان، وفى آخر جمعة منه كذلك، وفى نصف

ذى القعدة للرجال، وفى تاليه للنساء، وفى عشرين منه لغسيل الكعبة، وفى الثامن والعشرين منه لاحرامها (أعنى إحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحومترين من أرضية المطاف). وتفتح فى موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه مسدنتها. وتفتح الكعبة أيضاً بعد الحج فى نحوالعشرين من ذى الحجة لغسيلها».. ثم وصف إحتفالية غسل الكعبة، فكتب: «ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعظماء الحجيج: وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف فى مقدمة الداخلين اليها، وبعد أن يصلى ركعتين يؤتى اليه بجردل الماء من عين زمزم، فيغسل أرضها بمقشات صغيرة من الخوص ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها، ثم يغسلها بماء الورد، وبعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الايدى بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك، وفى أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها. ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة فى المطاف الى باب شيبة تلك المقشات التى كانت تُغسل بها الكعبة وهى مقشات صغيرة من الخوص طولها نحو٣٠ سنتيمتراً، فيتزاحمون عليها ويتلقفونها بحال غريبة جداً، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شىء فى العالم، بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها، ويحفظها على سبيل البركة أثراً شريفاً من بيت الله المعظم. وقد يأتى بعض القوم وخصوصاً المطوفين والزمازمة بمقشات كثيرة يغمرونها بالماء، ويدعون أنها من التى غسلت بها الكعبة ويبيعون منها على الحجاج كل واحدة بنصف ريال على الأقل» !!

فى عهد الملك عبد العزيز

وتجدر الاشارة إلى حرص الملك عبد العزيز . رحمه الله . على مباشرة غسل الكعبة بنفسه، وحدث ذلك عدة مرات.. ففى موسم عام ١٣٥٤ هـ

قام جلالته بغسل الكعبة المشرفة «فى إحتفال مهيب حضره صاحب السموالملكى الأمير سعود بن عبد العزيز ولى العهد وصاحب السموالملكى الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب الملك فى الحجاز وعدد من أصحاب السموالملكى الأمراء، والعلماء والسدنة والوجهاء».. وفى موسم عام ١٣٥٥ هـ «تفضل جلالته بغسلها بنفسه بمعاونة سدنتها وموظفى الحرم وأغواته».. وفى موسم عام ١٣٥٦ هـ شاركه فى شرف غسل الكعبة «سموالأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية».. وفى موسم ١٣٦١ هـ «قام جلالته بغسل الكعبة وبمعيته أصحاب السموالملكى الأمراء وسدنة البيت العتيق وأغواتة».. وفى موسم عام ١٣٦٢ هـ «باشر الملك عبد العزيز غسل الكعبة بمعية سعادة رئيس بعثة الشرف المصرية الفريق محمد حيدر باشا، ومعالى محمد صبرى أبوعلم باشا وغيرهما من كبار الحجاج وأصحاب السموالملكى الأمراء وسدنة البيت العتيق وكبار موظفى الحرم».

وتجدر الاشارة إلى غسل الكعبة الذى غدا مناسبة إسلامية كبرى، يتم حاليا ً فى يومين محددين: الخامس عشر من شهر شعبان، واليوم الأول من شهر ذى الحجة من كل عام.. حيث يتشرف أمير منطقة مكة المكرمة نيابة عن «خادم الحرمين الشريفين» بقيادة غسل الكعبة المعظمة، وعادة ما يتشرف بهذه المناسبة عدد من الوزراء وكبار الشخصيات وسفراء الدول الاسلامية وكبير سدنة الكعبة الشريفة.

وأوروبيون داخل الكعبة..!

كانت الرغبة فى المزيد من المعرفة هى التى أهابت بأوروبا إلى ولوج جزيرة العرب ومحاولة «اكتشافها من جديد» !.. وتنوعت الأهداف والنوايا لدى الرحالة الأوروبيين، وبعضهم وقع تحت تأثير نداء الاسلام فحسن إسلامهم، واكثرهم تظاهروا بالاسلام وتسنى لهم دخول المدينتين

المقدستين «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة» !.. لكنهم كانوا من أبرع الرحالة والباحثين المدققين ونجحوا فى مهامهم الحقيقية برصد الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما تركوا لنا سجلاً حياً لمشاهداتهم وانطباعاتهم فى وصف الدروب والمزارات والبقاع المقدسة !

ومن هؤلاء الرحالة الذين حظوا بهذا الشرف الرفيع: «جوزيف بيتس» أول بريطانى وثانى أوروبى يدخل مكة المكرمة، وكان ذلك فى سنة ١٦٨٠م، وعلى الرغم من صغر سنه إلا أنه كان أول رحالة يصف درب الحج . البرى والبحرى . من بلاد المغرب، تحدث عن: رابغ وجدة ومكة وجغرافيتها، والحرم المكى.. وقد أتيحت له الفرصة مرتين لدخول جوف الكعبة خلال فترة مكوثة بمكة وعلى حد قوله «وهوحظ سعيد لم يتح لآلاف الحجاج» وأشار بأن على المسلم الذى يدخل الكعبة، أن يصلى ركعتين فى كل ركن من أركانها بخشوع كامل واستغراق شديد وأضاف: «لم أر سوى عمودين خشبيين فى الوسط لمساندة السقف وقضيباً حديدياً مثبتاً فيها، علقت عليه ثلاثة مصابيح فضية.. وأرضية الكعبة من رخام وكذلك جدرانها الداخليه، وهى تزدان بكتابات ونقوش.. ولا يمكث الحجيج داخلها سوى لحظات فهناك آخرون ينتظرون دورهم.. وشريف مكة لا يعتبر نفسه أهلاً لتنظيف البيت، فيقوم أتباعه بغسل الكعبة بماء زمزم ويتم إبعاد السلم المتحرك الذى يوضع للصعود إلى باب الكعبة، فيتزاحم الناس أسفل الباب ليتلقوا ماء غسل الكعبة، والمكانس التى استخدمت فى التنظيف يتم تكسيرها إلى قطع صغيرة وتنثر فوق الحجيج المتجمعين، ومن يحصل على قطعة منها يحتفظ بها كذكرى مقدسة» !

أما الرحالة الاسبانى «دومينحوباديا» أوالأمير على بك العباسى، فكان من أبرز الرحالة الجغرافيين الأوروبيين الذين جابوا جزيرة العرب وأكثرهم غموضاً، وهوأول من منح الأوروبيين تقريراً مفصلاً عن طرق التجارة فى

الحجاز، وصل إلى مكة المكرمة فى ٢٣ يناير عام ١٨٠٧م واستقبله شريف مكة، وتأثر كثيراً بمشهد الكعبة ووصف داخلها، فكتب: «أما القسم الداخلى من الكعبة فليس مغلقا بل هوعبارة عن قاعة أقيمت فوق مستوى السطح ومثله الباب، وهناك عمودان فى منتصف قاعة الكعبة، قطر كل واحد منهما أقل من قدمين يحملان السقف، ومظهرهما من الداخل يستحيل على وصفه حيث يُخفيهما قماش رائع ممتد يغطى كذلك الحيطان والأعمدة من الأعلى إلى الأسفل حتى يصل إلى ما فوق خمسة أقدام من الأرض، هذا القماش من الحرير الوردى مطرز بالزهور بخيوط من فضة ومبطن بآخر لونه أبيض، وكل سلطان جديد فى القسطنطينية ملزم بإرسال واحدة منها عند توليه منصبه...

وجدران الكعبة مكشوفة ومرصعة بغطاء جميل من المرمر، بعضها ملساء والأخرى مزخرفة بالزهور المطرزة، أوالأرابسك البارز، وبعضها عليه نقوش كتابية. وأرضيتها أيضاً مبلطة بمرمـــر جميل، وعلى ارتفاع سبعة أقدام أوثمانية توجد عارضة تمتد من عمود لآخر، وثانية تمتد من كل عمود إلى الحائط يدعون بأنها من الفضة، وهناك عدد هائل من المصابيح الفضية مُعلقة فيها، مُتراصه الواحدة فوق الأخرى، وفى الزاوية الشمالية من الصالة هناك درج يُصعد منه إلى السقف يُغطيها حاجز، وبابها مُغلق.

أما سقفها فهومنبسط فسيح فى أعلاه، ليس فيه سوى ميزاب واسع جدا فى الجهة المتجهة صوب الشمال الغربى حيث يصب الماء فى الجزء المحاط بحجر إسماعيل ؛ يقولون إنه من الذهب، لكن يبدولى أنه من البرونز المذهب» !

أما الرحالة والمستشرق السويسرى الشهير: جون لويس بوركهارت أو«الشيخ ابراهيم المهدى» !.. والذى أتاحت له الظروف زيارة المدينتين

المقدستين مكة والمدينة والاقامة فيهما وفى جدة والطائف وينبع لنحوعشرة شهور من منتصف شهر يوليو١٨١٤ حتى منتصف مارس ١٨١٥م وسجل مشاهداته وانطباعاته عن أحوال بلاد الحجاز وسكانه وأنماط حياتهم.

دخل بوركهارت مكة المكرمة فى الثامن من سبتمبر ١٨١٤م ووصف مكة وجبالها وشوارعها وبيوتها والحرم المكى، وقال عن غسل الكعبة «وصف إفتتاح الكعبة» !.. وكتب بوركهارت: «تفتح الكعبة ثلاث مرات فى السنة فقط: فى اليوم العشرين من شهر رمضان وفى الخامس عشر من ذى القعدة وفى العاشر من محرم (أوعاشوراء كما يدعوه العرب). ويتم الافتتاح بعد ساعة من شروق الشمس عندما يُسحب الدرج على عجلات إلى بوابة المبنى، وما إن تمس الحائط حتى تتسارع الحشود فوقها وتملأ الكعبة كلها من الداخل فى لحظات. ويصطف خصيان المسجد على الدرجات ويسعون عبثاً للحفاظ على النظام فتهبط عصيهم من بين الحشود بلا رحمة. وفى الداخل على كل زائر أن يصلى ثمانى ركعات أويقوم بست عشرة سجدة ؛ فى كل زاوية منها ركعتين، وبعد انتهاء الصلوات، على الزائر أن يتكىء على أى جزء من الحائط بيدين ممدوتين ووجهه ملتصق به، وهكذا يردد أدعية دينية، فيملأ الغرفة النشيج والعويل وأعتقد أنى لاحظت أقوى المشاعر وأصدق الانفعالات القلبية المخلصة وتوبة صادقة لدى العديد من الزوار، وتُسمع الهتافات التالية وأخرى مشابهة، وقد تبللت وجوه عديدة بالدموع:«يارب البيت اغفر لى ولوالدى ولأبنائى ! رب أدخلنى فى جنتك، وخلص رقبتى من نارك. يارب البيت العتيق !». ولم أستطع البقاء أكثر من خمس دقائق، حيث كاد يُغمى على من شدة الحر وجُر عدة أشخاص إلى الخارج بصعوبة وهم فاقدوالوعى !

عند المدخل يجلس شريف حاملاً مفتاح الكعبة الفضى فى يده

التى يمدها إلى الحاج يقبلها ويدفع لقاء ذلك رسماً عند خروجه، كما يُعطى المال أيضاً لطواشى يجلس بجانب ذلك الشريف، ويتوقع كذلك بعض الطواشية على الدرجات وعدة موظفين بسطاء وخدام على الأرضية التى تحيط بالكعبة، أن يدفع لهم الحجاج كذلك. وقد سمعت العديد من الحجاج ينتقدون بشدة وقسوة هذه الممارسة المشينة قائلين إن المكان الأكثر قدسية على الأرض لا يجب أن يكون مسرحاً للطمع والجشع الانسانى ؛ إلا أن المكيين لا تهزهم مثل هذه التوبيخات.

تبقى الكعبة مفتوحة حتى الحادية عشرة تقريباً. وفى اليوم التالى تُفتح حصرياً للنساء، وبعد زيارة الكعبة، من الواجب تأدية الطواف حولها.

يتألف داخل الكعبة من قاعة واحدة يدعم سطحها عمودان وليس أى وسيلة للإضاءة إلا النور الذى يدخل من الباب. إن السقف والنصف العلوى من العمودين والجدران الجانبية، ضمن مساحة من الأرض تبلغ نحوخمس أقدام، قد زُينت بقماش سميك من الحرير الأحمر المنسوج بأزهار ونقوش بأحرف كبيرة من الفضة، والجزء السفلى من كل عمود قد مُد عليه خشب الألوة الجميل المنحوت ؛ وذلك الجزء من الجدران أسفل القماش الحرير رُصف بالرخام الأبيض الجميل المزين بالنقوش البارزة، وزخرفات الأرابيسك الجميلة، والعمل برمته هوعبارة عن براعة مُتقنة. والأرضية التى هى فوق مستوى معين من الباب، وبالتالى ترتفع بنحوسبع أقدام عن مستوى منطقة المسجد، قد رُصفت بالرخام بألوان مختلفة. وقد علقت بين الأعمدة أعداد من المصابيح وهى هبات من المؤمنين ويُقال أنها من الذهب الخالص ؛ ولم يمسها الوهابيون وفى الزاوية الشمالية الغربية من الغرفة بوابة صغيرة تؤدى إلى السطح المنبسط للبناء. ولم أشاهد أى شىء آخر يستحق الملاحظة ؛ لكن الغرفة شديدة الظلمة بحيث أنك تحتاج لبعض الوقت قبل أن تتمكن من رؤية أى شىء فيها.

إن الزخارف الداخلية معاصرة لترميم الكعبة الذى تم سنة ١٦٢٧م. ولم أتعرف أية شعائر مقدسة لغسل أرض الكعبة كما ذكرت فى «أسفار على بيه العباسى» فقد رأيت الطواشية يؤدون تلك المهمة بالطريقة نفسها التى تُغسل فيها الأرضية حولها؛ رغم أنه يبدومن تاريخ (الأعصمى) أن أرض الكعبة يغسلها أحياناً رجال ذووشخصيات مهمة» !

ثم الفرنسى «تاميزييه» الذى أختير كاتباً للبعثة الطبية الفرنسية المرافقة لحملة محمد على باشا لاخضاع بلاد عسير، كان له طموح المغامر، متطلعاً إلى اكتشاف عالم الشرق على طريقته.

أقامت البعثة الطبية فى جدة أكثر من أربعة شهور بدءاً من العاشر من يناير ١٨٣٤م ثم رحل إلى مكة المكرمة «المدينة المقدسة» وتحدث عن جغرافيتها، ودروب الحج، وأحواض المياة الضخمة المخصصة لقوافل الحج، كما تحدث عن تاريخ الكعبة والحجر الأسود.. وكان أحد المحظوظين بدخول الكعبة المعظمة، فكتب: «.. وقد كانت البوابة التى ندخل إليها عبرها مصنوعة من الفضة السميكة والصلبة، وهى تقع فى الطرف الجنوبى، وقد رفعت عن سطح الأرض بما يعادل ثمانية أقدام تقريباً. وبدلاً من الصعود إليها عن طريق درج ثابت فقد كان يتم استخدام طقم متنقل من السلالم التى تتم إزاحتها بعيداً بمجرد الانتهاء من كل احتفال دينى تتم إقامته بها.

ويتم فتح تلك البوابة الرئيسية إحدى عشرة مرة فى كل سنة على النحوالآتى:

- فى شهر رمضان مرتان.
- فى شهر ذى القعدة مرة واحدة فقط.
- فى شهر ذى الحجة مرتان.

- فى شهر صفر مرة واحدة.
- فى شهر ربيع أول مرتان.
- فى شهر شعبان مرتان.
- فى شهر رجب مرة واحدة فقط.

وفى النهاية يتم فتحها فى شهر ربيع الآخر بغرض تنظيفها وغسلها وتطهيرها بعد هذا القدر الكبير من الأوساخ التى تكون قد تراكمت بداخلها.

وبالإضافة إلى ذلك فعند قدوم إحدى الشخصيات المهمة والمؤثرة إلى مكة، وفى حالة عدم اعتزامه البقاء هناك حتى فترة الحج، فيمكنه فى هذه الحالة أن يحصل على إذن من حامل مفاتيح الكعبة للدخول إلى هناك فى مقابل سداده لمبلغ مرتفع !

أما الجزء الداخلى من الكعبة فتتدلى منه أغطية من الفسيفساء العربية ذات الألوان التى لا تحصى ولا تعد. وبدءاً من طول الرجل العادى، ويستمر تدلى قماش مقصب ومطرز بالذهب على امتداد الكعبة المقدسة فصاعداً، إلى أن يصل إلى أعلى نقطة فيها وفى قلب الوسط تنتصب ثلاثة أعمدة من الفضة الصلبة والسميكة، وهى التى توفر دعامة لكل قاعدة هذا البناء.

ومن الداخل تكون الكعبة مكسوة بكاملها بقماش من الحرير الأسود الدمشقى الذى يلتف حولها، والمغطى بشكل تام بالعديد من الآيات القرآنية، وكل هذا العمل مطرز بطريقة مريحة.

أم بالنسبة للفضاء الواقع بين المدخل وبين جسم هذا البناء (الكعبة) فيشع منه وشاح مقصب بالذهب يمتد حول كل المنطقة المحيطة «ببيت الله».

وكتب الضابط الروسى «دولتشين» فى «تقرير سفرته السرية إلى

مكة» عام ١٨٩٨م عن الحج ومناسكه و«المسجد الكبير فى مكة» وكسوة الكعبة ثم أشار بايجاز عن فتح الكعبة ووصف داخلها، فكتب: «يفتح باب الكعبة المزدان بوفرة من الفضة فى ايام معينة، عشر مرات فى السنة، وفيها يسمحون بالدخول إلى داخل الكعبة لجميع من يرغبون فى الصلاة هناك، وداخل الكعبة عبارة عن قاعة بسيطة خالية من أى زخارف أوزينة، وجدرانها الداخلية مكسوة بقماش حريرى فاخر يرسله السلاطين الأتراك فور توليهم العرش» !



منظر عام للمحمل المصرى بعد وصوله إلى مكة المكرمة عام ١٨٦٩م



كارل دويتش: الاحتفال بطلعة المحمل بالقاهرة عام ١٨٣٤



فى معسكر قافلة المحمل الشامي بالمدينة المنورة عام ١٩٠٨



الوقوف بعرفات فى كتابات الرحالة الأوروبيين





كانت منطقة الحجاز مطمحاً للرحالة الأوروبيين المغامرين، وقد دخل بعضهم مكة المكرمة والمدينة المنورة متنكرين فى مواسم الحج، وبعضهم دخلهما مسلماً، يدفعهم الشوق إلى رؤية هذه البقاع التى شهدت أعظم حضارة فى تاريخ الإنسانية، ومن هؤلاء: ناصر الدين دينية ومحمد أسد وعبد الكريم جرمانوس ومراد هوفمان، كما جمعتهم الرغبة فى التعرف على المظاهر الاجتماعية والثقافية لأهل المدينتين المقدستين.



ويعتبر الرحالة الإيطالى «لود فيجودى فارتيما» أوالحاج يونس المصرى من أوائل المغامرين الذين كان أول من ارتاد مكة المكرمة عام ١٥٠٤م، وقد وردت كتاباته منشورة مع رحلة «بيرتون» وقد تمكن من أداء مناسك الحج وزيارة المدينة المنورة، إلى أن استطاع الهرب من القافلة إلى مدينة جدة ومنها أبحر إلى إيران.

وقد وصف دى فارتيما المدينة المنورة وما حولها ووصف مسجد النبى . صلى الله عليه وسلم، ورحلته إلى مكة المكرمة، ووصف الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، وطواف الحجيج حول الكعبة وبئر زمزم وتقديم الأضاحى، ووصف الوقوف بجبل عرفات، وأشار إلى أن «أحد العلماء صعد إلى قمة الجبل وخطب فى الناس خطبة أستغرقت نحوساعة، فأهاج الناس طالبين من الله الرحمة والمغفرة» !

وعندما كان «جوهان وايلد» يؤدى خدمته العسكرية بالجيش الامبراطورى فى المجر، أسره الأتراك واقتادوه إلى القسطنطينية ورافق سيده فى رحلة الحج إلى مكة المكرمة عام ١٦٠٧م، فكان أول ألمانى يزورها، استعاد حريته وعاد إلى وطنه عام ١٦١١م، كتب مذكراته عن رحلته تحت عنوان «تقرير رحلة لأسير مسيحى» !.. وقد تضمنت مذكراته تقارير عن أحوال التجارة والأحوال الاجتماعية والسياسية، كما تحدث عن الحجر الأسود ومناسك ورحيل الحجاج وصعودهم إلى جبل عرفات ورمى الجمرات، وأشار إلى أن جموع الحجيج القادمين من كل حدب كانت أكثر من أربعين ألفاً !

أول بريطانى يزور مكة المكرمة

كما كان «جوزيف بيتس» أول بريطانى يزور مكة المكرمة، وكان ذلك فى عام ١٦٨٠م عندما كان يعمل بحاراً . وهوفى الخامسة عشرة من عمره

. على إحدى السفن، وكان حوض البحر المتوسط يشتعل بحروب «الجهاد البحرى» التى كان يشغلها المسلمون المطرودون من الأندلس، فوقع أسيرا ً فى يد أحد الجزائرين الذى قرر أن يجعل منه مسلماً، فرافق سيده فى رحلته إلى الحج، وبعد أدائه لفريضة الحج أعتقه سيده وكتب له ما يفيد عتقه !

وفى مذكراته أشار «بيتس» إلى أهمية «الميقات والمكان» اللذين يصبح فيهما المسلم «حاجاً حقيقياً» حيث يتوجه المسلمون بملابس الإحرام فى اليوم الثامن من ذى الحجة إلى جبل عرفات.. وكتب بيتس: «جبل عرفات ليس ضخماً غير أنه يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون عن سبعين ألفاً كل عام، وفى اليوم التاسع من ذى الحجة يعوض الله هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر !.. وثمة أحجار دالة تحيط بالجبل لتحديد حدود ما يسمى عرفة أوعرفات، وتعترى الحماسة بعض الحجاج فيأتون إلى هنا قبل الميقات وينصبون خيامهم، منتظرين يوم عرفة أويوم الوقفة، ولم أر فوق عرفات أى معالم يمكن وصفها سوى قبة صغيرة فوق الجبل.. لقد كان مشهداً يخلب اللب حقاً أن ترى هذه الآلاف فى لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا برؤوسهم العارية، وقد بللت الدموع وجناتهم وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة» !

الأمير الغامض

ومما لا شك فيه أن الإسبانى «دومينجوباديا» الذى أطلق على نفسه «الأمير على بك العباسى» كان أول رحالة أوروبى على درجة عالية من الثقافة يعلن اعتناقه للاسلام ويؤدى فريضة الحج، وقد وصل إلى مكة المكرمة قادماً من مصر فى ٢٣ يناير عام ١٨٠٧م ومكث بها ٣٩ يوماً،

وقد أثار بعض المؤرخين الشك فى حقيقة إسلامه ونواياه !.. ووصف «الأمير الغامض» الوقوف بعرفة، فكتب: «تم تحديد يوم الوقوف بعرفات يوم الثلاثاء ١٨ فبراير ١٨٠٧ ... مكثناً بمنى حتى صباحاً بدأ تحركنا إلى الجنوب الشرقى ومررنا بمزدلفة ثم اتجهنا إلى عرفات . الذى هوجوهر الحج . حيث تتكاثف الجموع من جميع الأمم ومن كل الألوان من أقاصى الأرض، ونشاهد الشركسى يمد يد الصداقة للحبشى أوالقادم من غينيا أوالهندى، ويعانق الفارسى المراكشى، كلهم ينظر للآخر كأنهم إخوة من عائلة واحدة يربطهم الدين معاً، وعرفات سهل متسع يبلغ قطره ثلاثة أرباع الميل، به جبل صغير (جبل الرحمة) من الجرانيت ارتفاعه نحو١٥٠ قدماً ... وله درج للصعود بعضها مقطوع فى الصخر.. وعلى قمة الجبل قبة صغيرة.. وبأسفل الجبل ١٤ حوضاً ضخماً قام بترميمها الإمام سعود لشرب الحجاج وغسلهم، وفى الشمال الغربى من الجبل يوجد مسجد إبراهيم، وبعد صلاة الظهر يتوجه الحجاج إلى أسفل الجبل، وعند الغروب تشاهد هذا الجمع الذى يزيد عدده عن ثمانين ألفاً فى لجة من الصخب يسارعون متجهين إلى مزدلفة».

بوركهارت أوالشيخ إبراهيم

ومن أشهر الرحالة الأوروبيين الذين زاروا منطقة الحجاز: الرحالة السويسرى «بوركهارت» والذى أدعى الإسلام وأطلق على نفسه «الشيخ إبراهيم»، وقد تميز هذا الرحالة المستشرق بإجادته للغة العربية واطلاعه الواسع على الثقافة الإسلامية وأحوال المسلمين، وقد تنوعت آثاره العلمية، وكان دخوله إلى مكة المكرمة فى ٢٦ رمضان عام ١٢٢٩ هـ / ٩ سبتمبر ١٨١٤م، وكان أبرع من وصف الحياة الإجتماعية فى مدينة مكة بأدق تفاصيلها، وقد أفرد فصلاً مطولاً لمناسك الحج، فكتب فى وصف الوقوف بعرفات: «صعدت على جبل الرحمة فى الجزء الشمالى الشرقى من السهل، وهوتل

منفصل عن الجبال العالية المحيطة، ويبلغ محيط جبل الرحمة ما بين ميل وميل ونصف، وترتفع قمته حوالى ٢٠٠ قدم، وفى الجانب الشرقى درج حجرى يقود إلى القمة.. وبعد صعود حوالى ٤٠ درجة نجد موقعنا صغيراً على اليسار يسمى «مدعى آدم» وبعد ٦٠ درجة نصل إلى مصطبة ممهدة إلى اليمين يقف عليها من يعظ الحجاج بعد الظهر، وعلى القمة نجد المكان الذى وقف فيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأحضرت معى البوصلة ولكن الازدحام منعنى من استخدامها، وإلى الجنوب تشاهد مسجد نمرة، وفى الطرف الشمالى من الجبل قرب سطحه بقايا مسجد صغير يسمى مسجد الصخرات.. وتشاهد فى صعيد عرفات عدداً من أحواض كبيرة لتخزين المياة مشيدة بالحجارة، ثلاثة منها أسفل جبل الرحمة، وتملأ الأحواض من نفس مجرى الماء الذى يغذى مكة المكرمة . عين زبيدة . وقد قدرت عدد المجتمعين هنا بحوالى سبعين ألفاً وربما لا تجد على الأرض فى موضع صغير كهذا مثل هذا التنوع من اللغات !.. وبعد صلاة الظهر اندفع الحجيج إلى جبل عرفات، وعند اقتراب العصر تم فك الخيام وربطها، وبدأ تحميل القوافل وركب الحجاج جمالهم وازدحموا حول الجبل، حيث أخذ الواعظ وهوقاضى مكة المكرمة . مكانه على المصطبة وهوراكب على جمل عليه زينة، وبدأ خطبته ودعواته التى استمرت حتى الغروب حوالى ثلاث ساعات ثم بدأ الدفع من عرفات إلى مزدلفة».

ليون روش

أما الرحالة الفرنسى «ليون روش» الذى عمل فى خدمة الاستخبارات الفرنسية بالجزائر وشارك فى مفاوضات الهدنة بين فرنسا والأمير «عبد القادر الجزائرى» عام ١٨٧٣م ونمت لديه مشاعر إعجاب بالزعيم الجزائرى، وما لبث أن اعتنق الاسلام وتسمى بـ«عمر عبدالله»..

رحل روش إلى مكة المكرمة فى قافلة للحجيج تضم مائة جمل، فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ وفى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٨٤٢م كانت «وقفة عرفات» وأشار روش إلى أن عدد الحجاج فى ذلك العام تجاوز الستين ألفاً، وفى عرفات «انطلقت أصوات المدافع معلنة موعد الصلاة، فارتفعت أصوات المؤذنين جميلة شجية، تدعونا لأداء صلاة الفجر».. وتحدث روش عن خطبة التاسع من ذى الحجة، وأن الخطيب قد خطب فيهم على ناقة بيضاء وبيده عصا طويلة «فى نفس المكان الذى خطب فيه النبى . صلى الله عليه وسلم . فى المسلمين الأولين.. بينما جلس شريف مكة تحف به حاشيته خلف الخطيب، فيما ترفرف فوق رأس شريف مكة والخطيب أعلام خضراء مذهبة الأطراف.. وعندما انطلق المدفع، اجتمع الحجيج على ظهور جمالهم وتقدم أمير الحج المصرى فى كوكبة من الفرسان والجنود ثم ركب المحمل الشامى.. وعندما ارتفع صوت المؤذن لأداء صلاة العصر، ران الصمت على الجميع وساد السكون المكان، وعندما رفع الخطيب يديه إلى السماء ملبياً، تبعه الحجيج فى خشوع وضراعة: «لبيك اللهم لبيك» !

بيرتون .. وقد تحقق حلمه أخيراً

وفى أسلوب سهل رائع، وصف الرحالة المستشرق البريطانى الشهير «ريتشارد بيرتون» مشاعره الفياضة وقد تحقق حلمه أخيراً بزيارة مكة المكرمة وأداء مناسك الحج، وسجل انطباعاته عن هذا اللحظات والمشاهد.. وقد بشرت المدفعية بحلول يوم عرفة . الثلاثاء ١٣ سبتمبر ١٨٥٣م . وبدأ الاستعداد لأداء شعائر هذا اليوم الهام، ووصف بيرتون صخب الزحام فى ذلك اليوم والصعود الى جبل الرحمة، فكتب: «وصلنا لمكان فى موضع مرتفع ناحية الجنوب الشرقى يسمى مسجد الصخرة، نسبة إلى صخرتين وقف النبى عليهما لترديد التلبية، وبعد أن صلينا ركعتين،

شققنا طريقنا عبر كثير من الخيام والصخور وصعدنا درجات وعرة تنتهى إلى جبل الرحمة، ورغم هذه الساعة المبكرة وجدنا زحاماً من الحجاج، الذين كانوا قد استعدوا بحجز أماكن مميزة لهم لسماع خطبة عرفات، ويصرون على أن الوقوف يجب أن يكون فوق الجبل، أما الغالبية فترى أن عرفة كلها موقف وهى السهل الممتد بين العلمين»، ووصف بيرتون صعود إلى قمة جبل الرحمة حيث «مدعى سيدنا آدم» وأداء الشعائر المعتادة، وبالقرب من سهل عرفات، شاهد موضع المحمل المصرى والمحمل الشامى.. ويضيف بيرتون: «لقد أفطرنا فى هذا اليوم متأخرين لأننا لن نستطيع تناول طعامنا مرة أخرى إلا عند حلول الليل، وبعد الظهر توضأ بعضنا واستحم البعض الآخر استعداداً للوقوف بعرفة، وقد بدأت تتزايد أصوات تلبية الحشود ودعواتها.. ثم أعلنت طلقة مدفع اقتراب موعد صلاة العصر، وسرعان ما سمعنا النوبة أوصوت الجوقة المصاحبة لموكب الشريف وهويشق طريقه إلى جبل الرحمة ولحسن الحظ كانت خيمتى قريبة من الطريق، لذا فقد تابعت المشهد بشكل كامل» !

دينيه وسر المدينة العجيبة

واستحوذ النزوع نحوتصوير عالم الشرق. الروحى والمادى. على اهتمام الفنانين الفرنسيين، وينفرد الفنان الفرنسى الشهير «ايتيين دينيه» بأنه الفنان المستشرق الأوروبى الوحيد الذى زار مكة المكرمة والمدينة المنورة، قام بعدها برحلات إلى الجزائر إلى أن استقر بها فى «بوسعادة» عام ١٩٠٥م، وفى عام ١٩١١م بدأ التفكير فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم والتعرف على سيرته، وعكف على قراءة ترجمات للقرآن الكريم والدراسات التى تناولت العقيدة الإسلامية حتى عام ١٩١٣ عندما انتمى رسمياً إلى دين الإسلام وتسمى بـ«ناصر الدين».. وصل إلى جدة فى ٢٦ مايوسنة ١٩٢٩م..

ووصف مكة المكرمة متسائلاً: «ما سر هذه المدينة العجيبة التى تهوى إليها أفئدة الملايين من المسلمين فى جميع بقاع الأرض ؟.. فكم من مدن تحسدها على احتضانها بيت الله المقدس وعلى أنها شرفت دون سواها بميلاد النبى محمد..» كما وصف الشعور بالرهبة والجلال فى ساحة الحرم المكى وأصوات المؤذنين ترتفع من المنارات الاربع.. ووصف «الحاج ناصر الدين» مشهد الحجيج على جبل عرفات «لقد كان مشهداً مؤثراً يمس القلوب، أكثر من عشرين ألفاً ارتدوا ثوب التواضع، كشفوا عن رؤوسهم.. أكثرهم تنساب دموع الندم من مآقيهم، تكاد تسمع زفرات الحزن تتصاعد من صدورهم، يطلبون من الله المغفرة ويعاهدونه أن يحيوا حياة جديدة» !

الطريق إلى مكة المكرمة

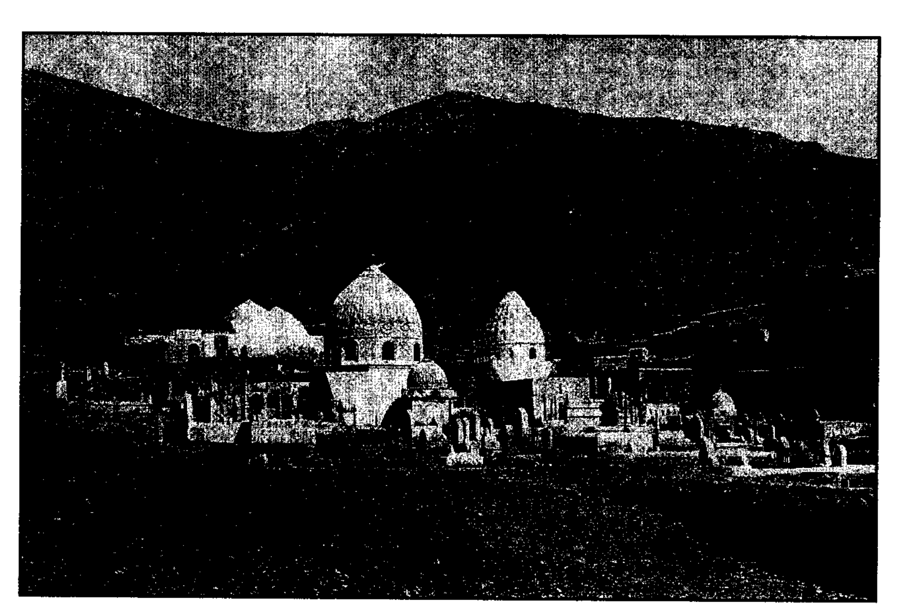
كانت أصدق تلك الرحلات فى بواعثها ونتائجها، تلك التى قام بها الرحالة والمستشرق «ليوبولد فايس» بعد أن أسلم واشتهر باسم «محمد أسد» والذى نشأ فى بولونيا فى أسرة يهودية، وقد أتيح له أن يقوم بعدة رحلات إلى الشرق الأوسط مراسلاً لبعض الصحف ووكالات الأنباء، وخلالها كانت أفكاره تتفتح على تجارب جديدة، استوعبتها روحه وامتلأ بها قلبه حتى إذا عاد إلى برلين عام ١٩٢٦م كان قد انتهى إلى قراره، فأعلن إسلامه على يد رئيس الجالية الإسلامية فى برلين ثم توجه إلى مكة وقضى فى جزيرة العرب ست سنوات، ثم عاش فترة الهند وشارك فى البناء السياسى لدولة باكستان ثم عكف على تأليف كتابه الشهير «الطريق إلى مكة».. الذى يجسد رحلته فى الأرض، ورحلة فى قلب رجل تعاقبت صورها على امتداد الزمان والمكان من بولونيا إلى بيت الله الحرام !. ومن وحى الموقف العظيم على جبل عرفات، كتب محمد أسد: «اخوانى عن اليمين، واخوانى عن الشمال، ليس بينهم من أعرفه، فنحن فى الجذل الصاخب،

فى هذا السباق جسد واحد يسير إلى غاية واحدة، العالم فسيح أمامنا وفى قلوبنا جذوة مما وقدت فى قلوب أصحاب رسول الله.. يعلم اخوانى أنهم قصروا عما كان يرجى منهم، وأن قلوبهم على مر العصور قد تضاءلت، ولكنهم لا يزالون على العهد سينجزون الوعد.. الله أكبر.. لقد اجتمعت فرق القبائل على هذا الشعار الواحد.. ترتفع أصواتهم: الله أكبر.. فى هذا الظفر يوفض السائر، يوفض بكل ما وهبه الله والايفاض غبطته والحرية معرفته وعالمه لا حدود له !.. حولى رائحة الإبل ووجيبها ونخيرها، وصياح الركبان، والوجوه الناضرة الوالهة، وفى قلبى سكون فجائى بهيج، ألتفت ورائى فأرى الامواج وانتفاض آلاف الركبان بيض الثياب، وورائهم القنطرة التى عبرتها، فأما آخرها فقريب خلفى، وأما أولها فقد غاب فى ضباب المسافات البعيدة» !

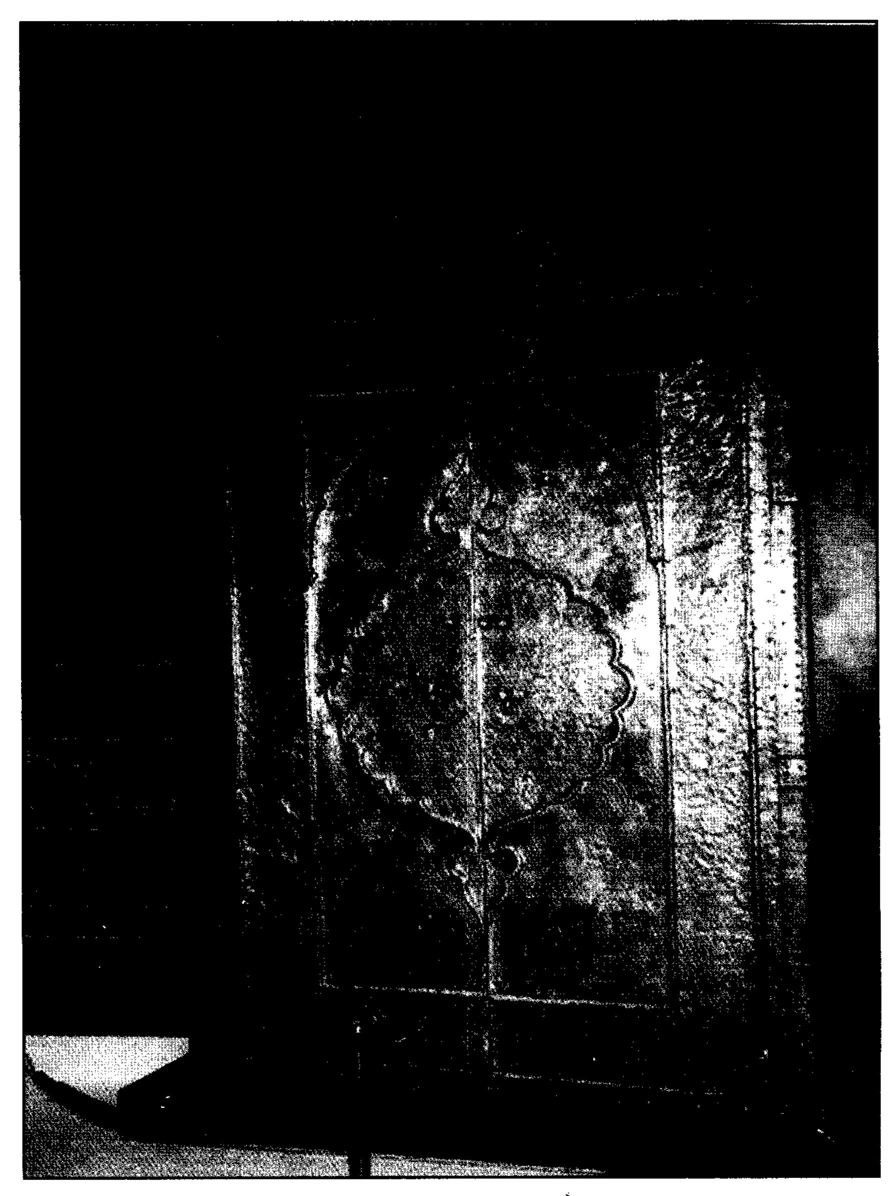
مستشرق تعلق قلبه بالإسلام

الرحالة والمستشرق المجرى الكبير «جرمانوس» الذى تعلق قلبه بالإسلام وفكره بالحضارة الإسلامية والأدب العربى، دعاه شاعر الهند الكبير «طاغور» لإلقاء محاضرات فى التاريخ الإسلامى بجامعات دلهى ولاهور وحيدر أباد فى الفترة ١٩٢٩- ١٩٣٢ وهناك أشهر إسلامه فى مسجد دلهى الكبير وألقى خطبة الجمعة وتسمى بـ«عبدالكريم» ثم ذهب إلى القاهرة وتعمق فى دراسة الإسلام على شيوخ الازهر، ثم قصد مكة حاجاً، وصنف فى رحلته كتابه «الله أكبر» الذى نشر بعدة لغات، كان جرمانوس يجمع بين وداعة العالم وتواضعه وحب المعرفة والكشف عن الحقيقة وجوهر العقيدة.. وقد رسم لنا مشهداً إيمانياً رائعاً لجموع الحجيج وهم يذرفون دموع التوبة، ضارعين ملبين: لبيك اللهم لبيك.. «رفعت يدى إلى السماء داعياً.. تمر أمام عيونى جموع الحجيج من كل بقاع الأرض،

خليط من البشر، هؤلاء من التتر يشقون طريقهم بأجسادهم القوية، وأولئك من الصين، تبدوعيونهم مثل حبات اللوز وبراءه الطفولة وطهرها تكسوملامحهم، يتتابع من ورائهم الأفغان بلحاهم وهيئتهم المعروفة، وخلفهم هنود ضارعين إلى الله بالدعاء وقد تحمل الجميع جميع المشاق والصعاب بينما النساء فى ردائهن الأبيض، يزاحمن فى حذر.. فى هذه اللحظات الرائعة ليس هناك رجال ونساء، ولكن أرواح مؤمنة صادقة تطلب من الله الرحمة والمغفرة.. فى مشهد سماوى يجل عن الوصف».دعاه شاعر الهند الكبير «طاغور



مقبرة المعلاة فى مكة المكرمة ١٨٩٠



باب الكعبة الذي أمر بصنعة السلطان مراد الرابع عام ١٠٤٥ هـ

مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية





شغلت رحلة الحج مكاناً بارزاً فى أدب الرحلات والتاريخ والجغرافية العربية، بما يؤكد الدور التاريخى والثقافى والاجتماعى والسياسى للحج فى المجتمع الإسلامى ..



وحتى بدايات القرن الماضى، كان طريق الحج يحفل بغمرة من الصعاب والمشاق الهائلة ورهق السفر.. وقد أولى سلاطين المماليك وسلاطين الدولة العثمانية وأسرة محمد على باشا اهتماماً خاصاً بطريق الحج وبتنظيم قوافل الحج ورعايتها.. ومنذ عصر الملكة « شجرة الدر » وبالتحديد سنة ٦٤٥ هـ حتى سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م كان « المحمل » رمزاً لقافلة الحج المصرى !.. وقد حرص حكام مصر على إخفاء الصفة الرسمية على المرافقين لركب المحمل واختيارهم بعناية تامة وعلى رأسهم أمير الحج وقائد حرس المحمل وأمين الصرة وقاضى المحمل ...

وقد يسترعى « الانتباه » والدهشة معاً أن مؤلف كتاب « مرآة الحرمين » لم يكن كاتباً أورحالة أوأديباً .. بل كان ضابطاً محترفاً هو« اللواء إبراهيم رفعت باشا » الذى كان قائد « أورطة » الفرسان الرابعة وشارك فى عدة حملات بالسودان .. إلى أن أصبح « ياوراً » للخديوى توفيق باشا ثم رئيساً لحرس الخديوى عباس حلمى الثانى !..

وقد حرص الضابط المحترف « إبراهيم رفعت باشا » على تدوين رحلاته وتسجيل مشاهداته فى هذا الكتاب، وقد قام بأربع رحلات للحج، الأولى سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠١م وفيها كان « قومندان » أوقائداً لحرس المحمل

وهى الرحلة التى تضمنها الجزء الأول من الكتاب بالكامل .. ثم أمير للحج فى رحلات ثلاث فى السنوات ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٤ م، ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م وهذه الرحلات الثلاث هى التى تضمنها الجزء الثانى من الكتاب .

وقـد يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل: ما الذى يدعوهذا الضابط المحترف إلى تدوين رحلاته بالرغم من عظم المهمة الملقاة على عاتقه ؟! .. يجيبنا « إبراهيم رفعت باشا » عن هذا التساؤل فى تقديمه للكتاب فيقول:

« كنت ولوعاً بالحج شغوفاً بأداء هذا الفرض متضرعاً إلى الله أن يوفقنى لرؤية بيته الحرام وما اكتنفه من المناسك، فمن على بالإجابة بعد الإهابة وبارك فى دعوتى كما بارك لإبراهيم فى دعوته الطيبة التى أحيت أمة إلى يوم القيامة وعمرت قطرها الجدب ونشرت فيه المدنية الصادقة والشرعة القائمة، فعينت فى سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) رئيس حرس المحمل (قومندانه) فرأيت أن نعمة الله على لا يفى بشكرها إلا تدوين رحلتى من أول خطوة فيها إلى آخر خطوة وإخراجها للناس لينتفعوا بها وليستضيئوا بنورها إذا حجوا إلى البيت الحرام أوقصدوا الجزيرة فلم أدع صغيرة ولا كبيرة مما رأيت أوسمعت إلا قيدتها، غير أنى كنت أرى مناظر جميلة وآثاراً ثمينة ومشاهد مهما دققت فى وصفها لا أصل بك إلى الحقيقة ولا أدخل من الروعة فى نفسك ما تدخله المشاهدة والرؤية وكنت أتمنى مصوراً ماهراً يحبس ما نرى من المناظر وكنت أود أن أكون ذلك المصور فلما رجعت من حجتى الأولى تعلمت فن التصوير وجعلته مسلاتى فى وقت فراغى ونزعت نفسى إلى حجة أخرى أقيد فيها الصور فأنالنى الله بغيتى

ومن على منة أخرى فى سنة ١٣٢٠ هـ / (١٩٠٣م) إذ عينت أميراً للحج فكتبت على نفسى أن أسلك سبيلى الأول فى تقييد كل ما أجد وتصوير كل ما يقع عليه النظر حتى أضيف إلى إخبارك - أرشدك الله - المشاهدة فيتمتع السمع والبصر كأنك تشاهد الأماكن المقدسة عن كثب . ومن على بحجة ثالثة فى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٤م) فكنت فيها أميراً للحج . وغمرنى بعد ذلك بحجة رابعة عينت فيها أيضاً أميراً للحج سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٨م) فتلك حجات أربع وإنها لنفحة كبيرة ومنحة جليلة تستدعى شكراً جزيلاً وثناءً عريضاً .... »

يذكرنى الضابط « إبراهيم رفعت باشا » بالضابط الروسى « عبد العزيز دولتشين» ورحلته « السرية » إلى مكة عام ١٨٩٨ وإن اختلفت الغاية والأهداف !

وقائع الرحلة الأولى ١٣١٨هـ / ١٩٠١م

فى الرابع من شهر رمضان سنة ١٣١٨ هـ / ٢٦ ديسمبر ١٩٠٠ م صدرت « الإرادة السنية » بتعيين « إسماعيل صبرى باشا » أميراً للحج وفى الخامس من ذى القعدة صدر « أمر عسكرى » بتعيين « إبراهيم رفعت باشا « رئيساً » قومندان » لحرس المحمل، وصدر أمر آخر بتعيين ١٨٠ ضابط وصف ضابط وعسكرى حرساً للمحمل، من بينهم ١٤ للفرقة الموسيقية العسكرية كما صدرت « الإرادة السنية » بتعيين أمين الصرة وإمام المحمل وكاتب أول الصرة وصراف الصرة وسائر الوظائف ... فكان جملة من فى خدمة قافلة المحمل ٤٧٣ ما بين ضباط وعسكر وموظفين وقادة الجمال والخيول والمشاعلية والسقائين وغيرهم ...

ومما يثير الدهشة حقاً وفى هذا الوقت المبكر جداً أن نعلم بتعيين « السيدة صالحة أفندى « طبيبة لقافلة المحمل - كان هذا قبل الدعوة لتحرير المرأة والتحاقها بالجامعة ! .....

ونعلم أن جملة الأموال التى أودعت « صرة المحمل « وسلمت لأمين الصرة بمقتضى « إشهار شرعى رسمى « وبحضور ناظر « وزير « المالية وأمير الحجر وصراف المحمل ومندوب عن قاضى القضاة كانت: ¼ ٢٦٢ مليم ١٨٨٩٣ جنيه مصرى !

ثم يعرض المؤلف للحديث عن « الكسوة الشريفة « ووصفها وقد جرت العادة أن يكتب « إشهار شرعى « بتسليم الكسوة من « مأمور « تشغيلها « حضرة عبد الله فائق بك» إلى « المحملى « وهومن يكون فى عهدته المحمل والكسوة « الحاج محمد أحمد « حتى توصيلها إلى البيت الحرام، وأورد المؤلف نص الإشهار الذى حرر بمعرفة «محكمة مصر الكبرى الشرعية « وعقدت جلسة المحكمة بمسجد مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه !

ثم يورد المؤلف وصفاً تفصيلياً لكسوة الكعبة وأستار باب التوبة وباب مقام إبراهيم الخليل وباب منبر الحرم المكى و.. « غلايتين من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد الباسن احتياج عسل بيت الله الحرام حسب المعتاد « !

الاحتفال بالكسوة الشريفة:-

كان يوم ٢٧ شوال سنة ١٣١٨ هـ / ١٦ فبراير سنة ١٩٠١ م هويوم

استعراض الكسوة الشريفة و« دوران المحمل « وكان من الأيام المشهودة فى تاريخ القاهرة ٠٠ ويشير المؤلف إلى نقل أجزاء المحمل داخل صناديق من مقره بوزارة المالية إلى « وكالة الست « بالجمالية، ونقلت كسوة الكعبة مع أحزمتها الحريرية المزركشة بالقصب وكسوة مقام الخليل إبراهيم من « مصنع الكسوة الشريفة « بالخرنفش إلى «المصطبة « بميدان صلاح الدين (ميدان القلعة) وكان نقل الكسوة على أكتاف الحمالين

يحيط بهم رجال الشرطة وفرقة من فرسان الجيش بصحبة « أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها - مأمور الكسوة - ممتطياً جواده مرتدياً بذلة التشريفة الكبرى وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة ٠٠٠ وسار الموكب بهذا النظام من المصنع إلى « سبيل كتخدا « القريب من النحاسين حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة آتياً من « وكالة الست « بالجمالية على ظهر جمل، فسار وراء كسوة المقام وسار الموكب كله إلى النحاسين فالغورية فباب زويلة فالدرب الأحمر فالتبانه فالمحجر فميدان صلاح الدين حيث أقيم هناك الاحتفال فوضع المحمل مع الكسوة فى المحل المقابل لردهة الاستقبال، التى زينت جدرها بقطع من كسوة الكعبة وأحزمتها القصبية وكيس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة، ووضع حول كسوة المقام أربع شمعدانات من الفضة أحضرت من جامع محمد على بالقلعة ٠٠٠ وقد أحيت المحافظة الليلة بتلاوة آى القرآن الكريم وإنشاد المنشدين ودعت العلماء والأعيان ومشايخ الطرق الصوفية إلى حفل عشاء والمشاركة فى إحياء هذه الليلة ٠٠

« دوران المحمل « بحضور الخديوى !

وفـى الصباح ٠٠ كان الاحتفال الرسمى والشعبى بالكسوة ودوران المحمل، حيث أعد سرادقاً فخماً بميدان القلعة لسموالخديوى والوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة ٠٠ وأطلق تحية للجناب الخديوى ٢١ طلقة مدفعية وصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى ٠٠ ثلاث مرات ! ٠٠ وشاهد الحضور والجموع المحتشدة « دورات المحمل السبع « المعتادة ٠٠٠٠

«وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذى قدم المقود إلى سموالخديوى فقبله وناوله قاضى القضاة فقبله أيضاً مع بعض الحضور ثم أعاده إلى المأمور الذى ينتظر بالمحمل قبالة جامع المحمودية بالميدان ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سمـوه « واقفاً « مع الوزراء والحضور، والخفراء يمرون بها من أمامهم حتى إذا ما انتهت استعرض الجيش ثم أطلق واحد وعشرون مدفعاً إيذاناً بانتهاء الحفلة وانصرف الخديوى والحضور ثم سير بالكسوتين والمحمل إلى مسجد الحسين رضى الله عنه يصحبها رجال الجيش والشرطة وأرباب الطرق وفى المسجد استقبل الكسوتين أمير الحج وأمين الصرة وكانا قد سبقا الناس إلى المسجد وهناك ضمت بالخياطة قطع الكسوة بعضها إلى بعض ثم نقلت إلى العباسية مع كسوة المقام فى صناديقها المعدة لها استعداداً للسفر بهما إلى الحجـاز«

سفر المحمل إلى السويس !

فـى ليلة الخامس عشر من ذى القعدة، رحل قطار المحمل من « العباسية « إلى « السويس « حاملاً الكسوتين وأمتعة المسافرين بصحبة المحمل، وتكون القطار من ثمان عربات مقفولة وثلاث « مسطحة « وخمس

« مجنبة » وسبع للحيوانات ٠٠ ثم لحقه قطار الركاب المكون من أثنى عشرة عربة واثنتين للحيوانات !

وعلى طول الطريق من القاهرة إلى السويس ٠٠ « كان الأهالى ومشايخ الطرق وطلبة المدارس بنين وبنات ينتظرون المحمل فى محطات الوقوف ومعهم الموسيقى والمزمار البلدى ٠ ومما رأيناه من عادات الأهالى إحضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ويلمسوه فيبارك لهم فى ذريتهم ووكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم إلى خدام المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئاً من النقود أويملئوها باللحوم البيضاء أوالفطير فيأخذ الخدم ذلك منها ويردونها إلى أربابها بعد إمرارها على المحمل » !!

واحتفلت مدينة السويس بالمحمل احتفالاً رسمياً وشعبياً بعد استقباله بإطلاق ٢١ طلقة مدفعية من قلعة السويس ٠٠ وبعد الطواف بشوارع المدينة فى مظاهرة حاشدة من الحب والبهجة والفرح الغامر، ثم وداع المحمل بإطلاق المدفعية كالمعتاد ٠٠٠ ثم شحن المحمل بالقطار إلى ميناء السويس ٠٠ وفى صباح اليوم التالى، وتحت إشراف محافظ المدينة وأمير الحج وقائد الحرس تم شحن الأمتعة والكسوة الشريفة والمحمل فى الباخرة « النجيلية » المخصصة لنقل المحمل وركبه إلى جدة ٠

وصول المحمل إلى جده

فــى التاسع عشر من ذى القعدة ١٣١٨ هـ / ١٠ مارس ١٩٠١ وصلت الباخرة « النجيله » إلى جده، بعد أن قطعت المسافة وقدرها ٦٤٦ ميلاً فى ٦٦ ساعة !

وينتقد المؤلف عدم حضور حاكم جده أومندوب عنه لاستقبال

وتهنئة أمير الحج المصرى - حسب العادات المتبعة ! - بل أطلقت باخرة المحمل سبعة مدافع إيذاناً بالوصول ولم ترد التحية « الباخرة العثمانية الحربية الراسية بالميناء » ! ٠٠ فتكررت التحية بإطلاق ٢١ مدفعاً وعزفت الموسيقى سلام جلالة السلطان ثم سلام الخديوى ٠٠٠ وبعد حين ردت التحية بإطلاق المدافع من قلعة جدة!

ويتنـاول المؤلف بالتفصيل عملية نقل الحجاج والأمتعة من الباخرة إلى ساحل جدة عن طريق السفن الشراعية « السنابك » ٠٠ ودفع أجور الحمالين وعوائد الحجر الصحى « الكورنتينا » ودفع رسوم إجازات السفر التى استغرقت وقتاً طويلاً !

وفى اليوم التالى، كان الاحتفال الرسمى بالمحمل المصرى فى جدة ٠٠ حيث اصطفت « عساكر الدولة العلية » وكان عددهم ستمائة من الجنود النظامية بينهم فرقة للموسيقى العسكرية، وانضم إليهم حرس المحمل يتقدمه أمير الحج وقائد الحرس وأمين الصرة ٠٠ « وسار المحمل بين الصفوف يجوب شوارع المدينة جرياً على سنته الماضية وكان يوماً مشهوداً ٠٠ والموسيقى تصدح بالأنغام الشجية وكنت ترى الوجوه ضاحكة مستبشرة لا تقرأ عليها إلا آيات الفرح والسرور » ٠

وقد قام حاكم جدة الملكى وحاكمها العسكرى « بملابسهما الرسمية » وسعادة « عمر نصيف باشا » شيخ تجار جدة ٠٠٠ بزيارة أمير الحج وأمين الصرة ورئيس الحرس « كلاً فى خيمته » وقدمت لهم القهوة والشراب الحلو!

وصف جـــده

وبعـــد أن تحدث « إبراهيم رفعت باشا » عمن تعرف إليهم بجده ومنهم:

رئيس المحكمة الأهلية ومأمور الأوقاف ومدير البريد ٠٠ والشيخ سليمان بن عبد الله البسام وكيل أمير نجد والتاجر ذى الخلق الطيب والمروءة والشهامة ٠٠ والطبيب محمد حسين أفندى « نائب قنصل إنجلترا « ومآثره الجمة على حجاج بيت الله الحرام من الهنود ٠٠٠ يصف لنا مدينة جدة، ليس فقط فى إطاره الجغرافى، وإنما تطرق أيضاً إلى وصف بيوتها وشوارعها وسكانها ومرافقها العامة ومساجدها وطواحينها ومقاهيها وصهاريج المياه ومخازن ومحال التجارة ٠٠٠ فيقول: « جدة، بلدة كبيرة وميناء مكة العظيمة على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ٠٠٠ يحيط بها سور ذو خمسة أضلاع يقطعها راكب الحصان بالسير المعتاد فى ٤٥ دقيقة وارتفاع السور ٤ أمتار وبه تسعة أبواب، ستة فى الجهة البحرية وثلاثة فى الجهات الآخرون وأول من بناه السلطان الغورى من ملوك مصر فى سنة ٩١٥ هـ وبها حوالى ٣٣٠٠ منزل مبنية بالحجر الأبيض المستخرج من البحر، ويتكون المنزل من طبقتين إلى خمس - والواجهات الأمامية من البيوت بها الرواشن المصنوعة من الخشب الهندى الأحمر المخروط، والبيوت العالية ذات الموقع الجميل والمنظر البهيج يسكنها أكابر البلد ووكلاء الدول (القناصل) من روس وإنجليز وفرنسيين ونمساويين ونرويجيين، ومن أفخم بيوتها بيت السيد عمر السقاف الشريف السرى، ومنزل المحافظ وأنه لآية فى الإبداع وبه حديقة غناء، وبجدة محل للحكومة وثكنات للعساكر، ومكتب للإشارات البرقية وبناء فخم للمجلس البلدى والحجر الصحى، كما تجد بالساحل بناء الجمرك، وبها خمسة جوامع وثلاثون مسجداً مفروشة بالحصر الناعمة الجميلة النظيفة، وهى مرتفعة عن مستوى الشوارع بنحو ثلاثة أمتار، يصعد إليها بدرج منتظم من الحجر وليس بها بيوت خلاء ولا ميضأت، وبها حمام واحد ونزلان (

لوكاندتان) وأربعون قهوة وصيدلية ومكتب تعليم راق وتسعة للصبيان ومستشفى ومصنع للجير ومذبح وأربعون مخزناً تجارياً وتسعمائة دكان وآلة بخارية لطحن الحبوب وسبع وأربعون طاحونة ومثلها مخابز وعشرة مطابخ وسوق لبيع السمك وآخر للصدف ومكاتب للبريد وبها جبانة قريبة من ثكنات العسكر، يحيط بها سور يبلغ طوله ضلعه الشمالية ١٦٠ متراً، وفى وسط الجبانة قبر أمنا حواء (المكذوب) طوله نحو١٥٠ متراً وعرضه أربعة أمتار وارتفاعه متر، عليه ثلاث قباب على الرأس والسرة والرجلين كما يزعمون ! ...

وشوارعها مختلفة السعة من ٨ أمتار إلى ١٥ متراً وحاراتها ضيقة وغير منتظمة. وبجدة مجار لتصريف مياه المطر إلى البحر كما بها ٨٠٠ صهريج داخل البلد وخارجها - معدة لخزن مياه المطر وبيعها فى موسم الحج ....

والمحمل يستورد مياه الشرب من أعذب الآبار بواسطة سقائين من جدة يتقاضون أجرة وبقرب معسكره صهاريج مفعمة بالمياه يؤخذ منها عند الحاجة. وبالمدينة مجلس بلدى أعضاؤه من الأهالى ومجلس للأحكام وقاضى شرعى . وجميع الأهالى مغرمون بشرب التبغ و(التنباك) والشاى والقهوة !

وأهالى جدة خليط من أجناس شتى مكيين ويمنيين وحضرميين وهنود وترك وشوام ومصريين، وعددهم حوالى ٢٥ ألف نسمة ويبلغ من فيها فى موسم الحجم خمسين ألفاً إلى ستين ويمر بها من الحجاج كل عام نحو١٢٠ ألف حاج.

ويشيـــر المؤلف إلى أهمية جدة كمرفأ تجارى لمدينة مكة « بل هى مرفأ الحجاز الهام » وقد حظيت بهذه المكانة منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان عندما آتى إلى مكة من المدينة معتمراً سنة ٢٦ هـ، فسأله أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من « الشعيبية » جنوبى جدة، إلى جدة لقربها من مكة و٠٠ « تأتى إليها التجارة من مصر وسواكن وزنجبار والصومال والهند وجاوة والروملى والأناضول وسوريا وبلاد المغرب والعراق والبحرين ومسقط واليمن وأوربا وآسيا وغيرها، ومن أصناف التجارة البن والصمغ العربى وأنواع الروائح وريش النعام واللؤلؤ والصدف والمرجان ودهن البلسان ودهن الورد، وترد إليها الحنطة والأرز والصابون والسكر من مصر وسن الفيل والأرز الهندى وعدد الجمال من الهند، وقد بلغت رسوم الواردات فى سنة ١٣٠٢ هـ ٦٣٧٩١٦ قرش عثمانى و٣٦ باره » !

الطريق من جدة إلى مكة

وعنـدمـا يتناول « إبراهيم رفعت باشا » وصف الطريق من جدة إلى مكة بالتفصيـل، فأنه يذكرنا بما كتـب الرحالة العرب العظام عن تلك المسالك والدروب والمواقع الجغرافية أو« المواقيت » كما تسمى فى ثقافة الحج، وما تؤديه هذه المواقع من خدمات نحوالقاصدين لبيت الله الحرام ٠٠ هذه المواقع شكلت معالم الطريق من جدة إلى مكة: « رأس القائم »، « الرغامة »، « جرادة »، « قلعة الكتانة »، « القلعة البيضاء »، « قلعة العبد أوقلعة سالم »، « قلعة الشديين »، « قرية بحره أوبحرة الرغاء »، « قلعة بحره » و« بئر أم القرون ٠٠ عمقها عشرة أمتار وماؤها عذب فرات » وبلدة « حده » وبها حسن ومسجد بمئذنة وعين ماء حلوة وبئران على اليسار ونحوستمائة

نخلة يملكها شريف مكة « عون الرفيق باشا « ! ٠٠ ثم « قلعة الشميسى « ومسجد الشميس أو« مسجد بيعة الرضوان « فى موضع الشجرة التى شهدت « بيعة الرضوان « فى عام الحديبية ٠٠ ثم « العلمين وهما عمودان من الحجر ومجصصان مربعا الشكل بارتفاع أربعة أمتار بينهما مسافة ٥٠ متراً ومنهما يبتديء الحرم من الجهة الغربية ٠٠٠ ومر الركب بـ « قلعة المقتلة « ثم « قلعة أم الدود « ٠٠ وقد تخلل الطريق: ابراج ومراع وآبار وأراض رملية صالحة للزراعة ومقاه وأسبلة ٠٠٠ وفى الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٣١٨ هـ وصل ركب المحمل إلى المضيفة « المسافر خانة « التى شيدها السلطان عبد الحميد للفقراء وتبعد مسافة نحوميل عن مكة، حيث كان المطوفون ومندوبين عن شريف مكة وواليها بانتظارهم وقدموا إليهم هدايا من « البطيخ والرمان وماء زمزم « !!

تبادل الزيارة بين أمير الحج المصر وصاحب الدولة شريف مكة

اتخذت قافلة المحمل من « جرول « غربى مكة - مقاماً محموداً - واغتسل الجميع من بئر « ذى طوى « اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ٠٠٠ ثم دخلوا إلى مكة من « طريق الحجون « وهوطريق « ثنية كداء « التى دخل منها النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ٠٠٠ وبعد زيارة قبور عدد من الصحابة « مقبرة المعلاه « ثم المرور بسوق مكة، توجهوا جميعاً لدخول المسجد الحرام لأداء « طـواف القدوم « واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، دخلوا من « باب بنى شيبة « وهوباب المسجد الأصلى فى عهد النبى ويعرف أيضاً بباب بنى عبد مناف ٠٠

وفـــى ذلك اليوم الذى وصلوا فيه إلى مكة (٢٥ ذى القعدة) وبعد زيارة بيت الله الحرام والطواف به والسعى والتحلل، قام أمير الحج وأمين الصرة بزيارة شريف مكة وسلم له أمير الحج رسالتين من « المعية السنية » وناظر « وزير الداخلية » تتضمنان التحية والعمل على راحة الحجيج، وقدم لهما الشريف القوة والشاى وكانا موضع حفاوته .. وكان « إبراهيم رفعت باشا » مشغولاً عن هذا اللقاء بـ « تنظيم المعسكر وإعداد ما يلزم لرجال المحمل وشراء العلف للدواب » ! .. وفى اليوم التالى، قام بصحبة ضباط حرس المحمل بزيارة الشريف » وقبلوا يده « فكانوا موضع رعايته، وسأل عن حال العساكر والحجيج وتحدث عن أمله فى إتمام مشروع السكة الحديدية حتى تتوافر سبل الراحة للجميع .

وفـــى السابع من ذى الحجة، قام شريف مكة « عون الرفيق باشا » ووكيله الشريف « على باشا » ووالى مكة المشير « أحمد راتب باشا » وسعادة اللواء « صادق باشا » مدير الإشارات البرقية، بزيارة معسكر المحمل المصرى فى موكب حافل .. وصدحت الموسيقى بسلام جلالة السلطان، واستعرض أمير مكة حرس المحمل وأطلقت المدفعية ٢١ مدفعاً ... و« قام الشيخ محمد السنباطى موزع الكساوى على العريان والقائم بالأدعية، فتلا خطبة امتدح فيها أمير مكة والوالى ودعا لجلالة السلطان، فكافأه الأمير بخمسة جنيهات كما كافأ الموسيقيين بثلاثة أخرى وتلك له عادة سنوية » !!

غسـل الكعبـة المشـرفـة

وقــد حظى المؤلف بالمشاركة فى غسل الكعبة المشرفة .. ولنترك لقلمه وصف وقائع هذا الحدث: « فى يوم الاثنين ٥ ذى الحجة دعيت من أمير الحج وأمين الصرة وبعض الموظفين لغسل الكعبة حسب المعتاد

سنوياً فلبينا الدعوة وذهبنا إلى المسجد الحرام وفى الساعة الأولى العربية حضر دولة الوالى وأمين الدفاتر (الدفتردار) واللواء (قومندان) الجند المكى وبعض العظماء من الحجاج ودخلنا الكعبة وصلينا فى كل من جهاتها الأربع ركعتين ودعونا الله بما أحببنا ودعوت للخديوى كما دعا له الأمير والأمين ثم أخذنا جميعاً فى غسل أرض الكعبة من الداخل بماء زمزم وكان ذلك بمقشات صغيرة صنعت من خوص النخيل ثم وزعت علينا خرق بيضاء مبللة بماء الورد والروائح العطرية وأخذنا نمسح بها جدر الكعبة، وقد اشتد الزحام أمام بابها لأخذ مياه الغسل للتبرك بها، والمطوفون يأخذونها فى دلاء ويضعونها فى قوارير يهادون بها أتباعهم من الحجاج وكذلك يتخاطف الناس مقشات الغسل بل يتضاربون عليها وعلى الماء، ولدى نزولى عن الكعبة وضعت ما معى من المقشات فى منشفة كبيرة (بشكير) استحضرتها معى لغسل الكعبة بها ولأحفظها بعد تبركاً، وقد زاحمنى الحجاج وعصر بعضهم المنشفة لعله يجد بها قطرة ماء ومنهم من مسح بها وجهه ومنهم من مسها ومسح على عينه وجسمه « !

إلى عرفات ومنى

فى ليلة الثامن من ذى الحجة تحرك ركب المحمل من معسكر بمكة ميمماً « جبل عرفات « فسار من حارة الباب إلى الشبيكة فالسوق الصغير ثم جياد .. حيث «التكية المصرية « ودار الحكومة العثمانية المسماه « الحميدية « ثم شارع المسعى فالقشاشية ثم سوق الليل فالغزة .. حيث دار شريف مكة التى أسسها محمد على باشا ..

ثم توجه الركب شمالاً ماراً بالبياضية .. ثم شرقاً إلى أول مدرج - جزء

من الطريق مرصوف بالحجارة يشبه درج السلم - ثم تابع الركب سيره حتى بلغ « منى » ثم إلى «المزدلفة » ثم « عرفه » ٠٠ قاطعاً المسافة فى ٥ ساعات و٣٥ دقيقة ! - و» بالطريق كل ما يحتاج إليه الإنسان من ماء وقهوة وشاى ومأكولات من لحوم وأرز وعدس - مطبوخة وغير مطبوخة - وسكر وحلاوة وملبس ٠٠ » !

نـــزل ركب المحمل من « عرفة » مكانه المعتاد سنوياً بوسط الوادى، وكانت الخيام والأمتعة والمؤن قد أرسلت إلى هناك فى الليلة السابقة ٠٠ وبات الركب ليلة التاسع من ذى الحجة ٠٠ وقبل المغرب بساعة من يوم عرفة « تحرك المحملان المصرى والشامى » يتقدمهما أميراهما وأمين الصرة، والجند يحيطون بهما حتى وصلا إلى سفح جبل الرحمة قريباً من سفحه يحيط به العساكر لمنع التزاحم عليه، ووقف بجواره مبلغان مصرى وشامى بيد كل منديل يلوح به للحجاج كلما سكت الخطيب، وساعة يلوحان ترى الآلاف المؤلفة من الأجناس المختلفة وقد كشفت منهم الرءوس وعريت منهم الأقدام إلا القليل وارتدوا ملابس الإحرام تراهم يستغيثون ومما أسلفوا يستغفرون رافعين عقيرتهم بالتلبية « لبيك اللهم لبيك ٠٠٠ »

التهنئة بالعيد فى منى

شغـــل الحجيج عن التهنئة بالعيد فى يومه الأول لذهابهم إلى مكة لأداء طواف الإفاضة بعد رميهم جمرة العقبة فى صباح العيد، وفى ثانى أيام العيد، أقبلوا يتزاورون مهنئين بعضهم بعضاً بالعيد، وعقب انتهاء الحفل بتلاوة « الفرمان » ٠٠ قام أمير الحج المصرى وقائد حرس المحمل بزيارة والى مكة والأشراف ورئيس العسكر السلطان ورئيس المالية

«المحاسبجى » .. كما قاما بزيارة أمير المحمل الشامى لتهنئته بالعيد وأطلقت المدفعية ١١ طلقة تحية لأمير الحج المصرى ....

وقد أقيمت فى مساء ١١ ذى الحجة الزينات بمنى عند خيام الشريف والوالى وأميرى المحملين المصرى والشامى وأطلقت « الصواريخ » بعد العشاء، وقد هرع الناس إلى زينة المحمل المصرى لجمالها وحسن تنسيقها وليسمعوا الموسيقى والمزمار البلدى، وكان الزحام شديداً - بصفة خاصة - على سرادق قائد حرس المحمل « إبراهيم رفعت باشا » !

وفى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة رحل ركب المحمل إلى مكة، حيث أدخل المحمل إلى صحن المسجد الحرام من « باب النبى » حسب المعتاد، وظل فى موضعه هذا حتى الخامس والعشرين من ذى الحجة حيث احتفل بسفره من مكة إلى المدينة .

ويشير المؤلف إلى عادات المكيين عقب موسم الحج فيقول:

« بعد انقضاء الموسم يقيمون الأفراح ويزوجون الأولاد ويتروضون جهة الطائف والزاهر والأماكن التى بها بساتى ويستصحبون معهم المغنين وآلات الطرب لأنهم ولعون بالأغانى، وفى شهر رجب يقصدون المدينة للزيارة وفى ذلك ينفقون ما جمعوا فى الموسم إلا قليل منهم يستبقى بعض كسبه لينفقه فى السفر إلى البلاد التى يفد مها الحجاج ليتعرف بمريدى الحج فى العام القابل وليتفق معهم على أن يكونوا من مطوفيه» !

القسم الدينى .. والفصل الجغرافى

أفرد المؤلف « إبراهيم رفعت باشا » مائة صفحة من الكتاب للقسم الدين وفصل جغرافى موجز فى وصف بلاد العرب ... !

وقـد تناول فى القسم الدينى ومن خلال المراجعة الفقهية والمصادر التاريخية وكتب الأحاديث: حجة الوداع وحكمة الحج وأحكامه فى المذاهب الأربعة وحكم العمـرة والإحرام وميقاته وأنواعه ومحظوراته، والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ... الخ من مناسك الحج وأحكامه .

وفـى الفصل الجغرافى، أورد المؤلف وصفاً طبوغرافياً لبلاد العرب: الحجاز عسير، اليمن، حضر موت، مهرة، عمان، الاحساء، البادية، نجد، الدهناء، صهيد ... كما تحدث عن طبيعة مناخها ونباتاتها وحيواناتها ثم التقسيم السياسى لجزيرة العرب فى ذلك العصر .

كذلـك أورد المؤلف « فصلاً تاريخياً موجزاً « أعتبره دخيلاً على موضوع الكتـاب ! .. تحدث فيه عن حال العرب قبل الإسلام ونشأة النبى صلى الله عليه وسلم وقيام الدولة الإسلامية وفتح بلاد العرب، والفتوحات والغزوات الأولى وحجة الوداع، الحروب التى خاضها العرب ضد الروم والفرس، فتوحات الشام والقدس ومصر وبلاد المغرب والأندلس والعراق وبلاد فارس وأواسط آسيا والهند ودخول الإسلام إلى جنوب شرقى أوروبا وروسيا والصين وأرخبيل الملايوثم السودان وشرق وغرب أفريقيا والصحراء الكبرى ... وصعود نجم الدولة العثمانية !

مكة المكرمة

وأفـرد المؤلف فصلاً خاصاً بمكة المكرمة: أسماؤها، موقعها الجغرافى وأقسامها الإدارية، جبالها، شوارعها وحاراتها وبيوتها و« مستشفى الغرباء « و«التكية المصرية « ودار الرسول صلى الله عليه وسلم، ودار خديجة أم

المؤمنين ودار الأرقم، وقصر أمير مكة الشريف عون الرفيق باشا، تأثير السيول فى مكة وتاريخها، أهل مكة وجوها وتجارتها وآبارها ... والمسجد الحرام .. و« عين زبيدة » .. !

وصف المسجد الحرام

ويقــدم لنا المؤلف وصفاً تفصيلياً دقيقاً للمسجد الحرام وأبوابه ومآذنه وتوسعته وعماراته ومواقف الأئمة بالمسجد وكيفية الصلاة فيه، كما حدثنا عن منبر المسجد ومقام إبراهيم الخليل وبئر زمزم وسقاية العباس والمماشى الأربع ومزاول المسجد وقناديله وأعمدة المطاف ....

ومــن الأهمية أن نجتزيء بعضاً من وصف المسجد، فيقول إبراهيم رفعت باشا:

« المسجد الحرام وسط مكة وشكله مربع تقريباً . وضلعه الشمالية المقابلة للحطيم ١٦٤ متراً وطول الضلع الجنوبية المقابلة للأولى ١٦٦ متراً، وضلعه الشرقية التى فيها باب السلام ١٠٨ متر، والغربية طولها ١٠٩ متراً، فيكون مسطحه من الداخل ١٧٩٠٢ متر أى أربعة أفدنة وربع تقريباً أما من الخارج فمتوسط طوله ١٩٢ متراً وعرضه ١٣٢ متراً وفى وسط المسجد بميل إلى الجنوب الكعبة المكرمة . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع ثلاثة أروقة ... ويحيط بالكعبة المطاف المرصوف بالرخام قد أقيم عليه صف من الأعمدة المصنوعة من النحاس الأصفر وصل بينها بعوارض الحديد تعلق فيها المصابيح وأقيم بخارج المطاف تجاه كل ضلع من أضلاع البيت - عدا الضلع الشرقية - سقيفة قامت على أعمدة الرخام يصلى فى الشمالية منها إمام الحنفية وهى ذات طبقتين

وفى الغربية إمام المالكية وفى الجنوبية إمام الحنبلية أما إمام الشافعية فيصلى خلف مقام إبراهيم شرقى الكعبة أوفوق البناء المقام على زمزم، وبجوار المطاف فى الجهة الشرقية المنبر وفى جنوبيه قبة أقيمت على بئر زمزم، وبشمالى البئر باب بنى شيبة يعلوه عقد أقيم على عمودين من الرخام، وقد كتب على باب بنى شيبة تحت الهلال (أدخلوها بسلام آمنين) وكتب على العقد (رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وأجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) وذلك بماء الذهب، وكتب فى الجهة المقابلة لمقام إبراهيم والكعبــة» الله جل جلاله « (سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين) « محمد عليه السلام « ۰۰۰۰

وأرض المسجد منخفضة عن الأرض المحدقة به بنحوثلاثة امتار ويصعد من أرضه إلى الأبواب التى على الشوارع بسلالم، والبيت منحدر تدريجاً عن هذه الأرض بنحومتر، وصحن المسجد سقفه السماء وفرشه الحصباء إلا ما تخلله من المماشى التى تصل بين الأبواب والأروقة من جهة والمطاف وما يليه من ناحية الكعبة من جهة أخرى فإنها مرصوفة بحجارة الجص كالأروقة ليسلكها الناس ويتجنبوا الحصباء التى كثيراً ما تكون مبللة بمياه الوضوء، ولذلك فإن المطوفين إذا ما دنت صلاة العصر بسطوا «الأكلمة» والسجادات على هذه الحصباء ليجلس عليها الحجاج، على أن كثيراً من الناس يفترش الحصباء الساعتين والثلاث انتظاراً للصلاة خصوصاً فى يوم الجمعة فتراهم يبكرون ويجلسون على الحصباء وقد اشتد القيظ وتسلط على الأدمغة لهيب الشمس كل هذا حرصاً على سماع الخبطة، وعرض تلك المماشى قريب من متر ويجلس عليها بعض النساء الفقيرات يبعن الحبوب للحجاج ليقدموها إلى حمام الحمى الذى يوجد بكثرة فى المسجد ولونه أزرق غامق به نقط رمادية وخطوط سود ۰

وكذلك يوجد بالمسجد طير الأبابيل ما يسميه المكيون - وهوأشبه بما نسميه عصفور الجنة - وهذه الطيور لا تنفر من الحجاج لأن الله كتب لها الأمن فى حرمه كما كتبه للناس ٠

وللمسجد خمسة وعشرون باباً، ففى الشرق خمسة أبواب وهى:-

باب السلام (ويعرف أيضاً بباب بنى شيبة وبباب بنى عبد شمس)

باب قيتباى ٠

باب الجنائز (ويعرف أيضاً بباب النبى والذى كان يخرج منه ويدخل إلى دار خديجة رضى الله عنها فى زقاق العطارين).

باب العباس بن عبد المطلب ٠

باب على (ويعرف أيضاً بباب بنى هاشم وبباب البطحاء)

وبالجهة الجنوبية من المسجد سبعة أبواب هى:-

باب بازان (ويسمى أيضاً باب القره قول أوالمخفر) ٠

باب البغلة (ويعرف أيضاً بباب بنى سفيان) ٠

باب الصفا (ويعرف أيضاً بباب بنى مخزوم) ٠

باب أجياد الصغير ٠

باب المجاهدية (ويعرف أيضاً بباب الرحمة) ٠

باب مدرسة الشريف عجلان (ويعرف أيضاً بباب بنى تميم وبباب التكية) ٠

باب أم هانىء (ويسمى أيضاً بباب الفرج وباب الحميدية) ٠

وبالجانب الغربى من المسجد خمسة أبواب هى:-

باب الحزوره (ويطلق عليه أيضاً باب البقالية وباب الخزامية وباب الوداع) ٠

باب إبراهيم (وهوأكبر أبواب المسجد) ٠

باب صغير بمدرسة الشريف عبد المطلب ٠

باب الداودية ٠

باب العمرة ٠

وفى الجهة الشمالية من المسجد ثمانية أبواب هى:-

باب عمروبن العاص (ويعرف أيضاً بالباب العتيق وباب السدة)

باب الزمامية ٠

باب العجلة (ويقال له أيضاً باب الباسطية) ٠

باب القطبى (ويعرف أيضاً بباب الزيادة) ٠

باب سويقه.

باب المحكمة ٠

باب الكتبخانة ٠

باب دريبة ٠

وللمسجد سبع مآذن...

فى المدينة المنورة:-

دخل ركب المحمل المصرى « المدينة المنورة « فى الثالث عشر من المحرم سنة ١٣١٩ هـ ٠٠ وعقب الاغتسال وارتداء الملابس البيضاء ٠٠ يمم الجميع شطر المسجد النبوى لزيارة خاتم المرسلين وصاحبيه، كما زاروا « مهبط الوحى « و« البقيع « وقام الفريق « عثمان باشا فريد « والى المدينة وشيخ المسجد النبوى بزيارة أمير الحج المصرى، وفى اليوم التالى دعاهم إلى وليمة فاخرة « ٠٠ ذكرتنا بموائد الملوك والأمراء « !

وفى الخامس عشر من المحرم، كان الاحتفال بإدخال المحمل المسجد النبوى ٠٠ حيث دخل المحمل المدينة من « باب العنبرية « يحيط به حرس المحمل وفرقة من العساكر الشاهانية وفرقة من الفرسان

.. وسار الموكب قاطعاً « المناخة » وعند الوصول إلى « الباب المصرى » ترجل الجميع تأدباً مع رسول الله حتى وصلوا إلى « باب السلام » أحد أبواب المسجد النبوى، حيث كان فى استقبالهم الفريق « عثمان باشا فريد » الذى تسلم مقود المحمل من يد أمير الحج .. « وأدخلنا المحمل المسجد ووضعناه بجوار المنبر النبوى كما هوالعادة كل سنة ثم جلس المحافظ والأمير والأمين ومن حولهم الموظفون وفككنا كسوة المحمل قطعة قطعة ووضعت فى وسط المحتفلين والغرض من هذا التفكيك أن يحمل كل موظف قطعة ويدخل الجميع المقصورة النحاسية لوضع الكسوة بها وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حمل كل منا قطعة واشترك المحافظ مع أمير الحج فى حمل « البيرق » وسار الجميع يتقدمهم المحافظ والأمين نحوالحجرة وقد ارتدوا الملابس والعمائم البيضاء ... ودخلنا المقصورة ودعونا وقد تيسر لى الدخول مرتين أخريين مع « الأغوات » لإيقاد المصابيح .

وقــد أقمنا بالمدينة اثنى عشر يوماً كنت أؤدى فيها أكثر الصلوات بالمسجد النبوى استزادة للثواب وكثيراً ما كنت أتلوالقرآن فى المصاحف التى أبدع تسطيرها مهرة الخطاطين من الأتراك، وإن جمال روائها وحسن تنسيقها ليستزيدك من القراءة فيها » !

وأفـاض المؤلف فى وصف « المدينة المنورة » وموقعها، ومساجدها، ومكتباتها، تكايا المدينة ومقبرة البقيع، طبوغرافية المدينة وأوديتها وآبارها وزروعها وقراها وتوابعها، ومناخها، أهل المدينة وعاداتهم، حرم المدينة والمسجد النبوى: تاريخه ومحاريبه ومنبر النبى صلى الله عليه وسلم المقصورة والروضة الشريفة، أبواب ومآذن المسجد وآداب زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

أهل المدينة وعاداتهم

قال تعالى (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) يسكن المدينة حوالى ٥٦ ألفاً بينهم من ذرية الأنصار الذين نزلت فيهم هذه الآية، وأكثرهم من الشاميين والأتراك والهنود والمصريين والمغاربة الذين رحلوا إلى المدينة ليجاوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليسكنوا البلد الذى عز فيه الإسلام وانتشر منه نوره فى قارات الدنيا القديمة ··· ويذكر المؤلف عدداً من أشهر البيوتات والعائلات الكريمة بالمدينة: الانصارى، الاسعدية، الكـــردى،الرفاعى، حماد، الخطيب ··· ويضيف: « ولا تزال الأخلاق الفاضلة التى أشادت بذكرها الآية راسخة فى نفوس المدنيين، فالأخلاق مهذبة والنفوس مكمله والأكناف موطأة يألفون ويؤلفون أنجاب كرماء أقاموا لنا الولائم الفاخرة ودعونا إليها بصدور منشرحة وبشاشة باشة، وما كان ذلك مكافأة لنا على خدمة قدمنا ولا انتظاراً لشىء منا، غاية ما فـى الأمر أنهم كانوا يأتون إلى معسكرنا لسماع الموسيقى - وأنهم لشديدوالولع بها - كل يوم بعد العصر فكنا نفرش لهم السجادات ونجلسهم على الكراسى ونقدم لهم الشاى والقهوة ····

ويشيـــر المؤلف إلى نبل وكرم أهل المدينة ·· وكم من دعوات لبوها من أشراف المدينة وأعيانها وشيوخ الحرم النبوى ····

« وكانت هذه الولائم فى بيوت جميلة وحدائق ذات بهجة تجرى من تحتها الأنهار، وقد بلغ من كرم أخلاقهم أنهم يستقبلون خارج المدينة الوافدين عليها من كل فج عرفوهم أوجهلوهم فيتلقونهم ببشاشة وسعة صدر ويدعونهم

إلى منازلهم فيجدون بها أهلاً وسهلاً وعيشاً رغداً وما فعلوا ذلك طمعاً فى مال أورغبة فى أجر ولكنه خلق تمكن فيهم فدفعهم إلى إكرام الضيف « ...

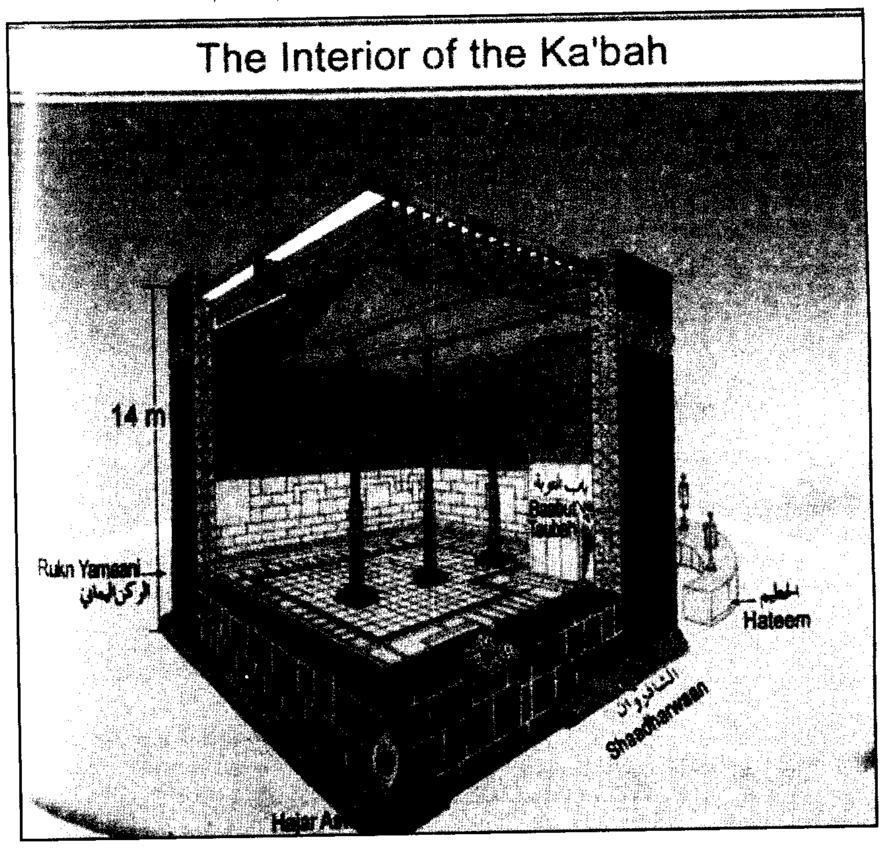
والتجارة بالمدينة فى أصناف كثيرة فيتجر أهلها وأرباب البادية فى التمر والسمن والجبن وعسل النحل والحبوب من قمح وشعير وفول وحمص وذرة وترمس وعدس وأرز، وأكثر الحبوب يرد من مصر والشام والهند، والسمن والجبن أكثره يأتى به الأعراب من البوادى فيشترون به الحبوب والثياب والنحاس ويتجرون فى الإبل والغنم والخيل الجيدة التى تأتى من نجد والحمير الحساوى، وفى الحرير بأنواعه والثياب القطنية والصوفية وتأتى إليها من تركيا ومصر والهند ويتجرون فى السجادات وتأتى من فارس وبغداد والبصرة، ويأتى من الأخيرتين العباءات التى يختلف ثمن الواحدة من نصف جنيه إلى عشرين، وتأتى الأبسطة من فارس وتركيا وبغداد، والنحاس يرد من مصر، وأهم صنف يتجرون فيه التمر الذى خصت المدينة من أصنافه لما لم يخص به غيرها، وقد بلغت أنواعه ١٧٢ نوعاً منها الأنواع الحرة وتبلغ نحو٧٢ صنفاً، وهذه يأكل منها أهل المدينة ويهدون، ومنها الأنواع التى تسمى « لونا « وتقارب المائة، وهذه يأكل منها عرب الجبال لرخص ثمنها، أما الأنواع الحرة فأهمها: العنبرة، الشلبى ويهدى منهما للأمراء والأعيان ثم « الحلوة « أحب الأنواع لأهل المدينة و« البيض «، «الشقرى» « السكرة « ويتفتت فى الفم بسهولة ! .. ثم الطبرجلى، البرنى، الخضرية، الرباعى، المكتومى، الجاوى وسكرة الشرق ! ....

وأشهر أسواق المدينة « سوق باب السلام « ويمتد من هذا الباب بالمسجد النبوى إلى الباب المصرى على مسافة نحو٤٠٠ متراً فى شارع ضيق وتباع بهذا السوق الأشياء الثمينة، ويليه « سوق البلاط « و« سوق الساحة « ثم « سوق المناخة « وفيه تباع الحبوب والخضر والفاكهة ثم « سوق الحراج « ....

ومـن عاداتهم فى رمضان أنهم يتناولون فطوراً خفيفاً فى المسجد النبوى بعد آذان المغرب لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وهذا الفطور من الحلوى والفطير وما شابه ذلك ثم يصلون المغرب ويذهبون إلى بيوتهم ليتناولوا الفطور الكامل، ويأخذون كل من يجدون فى الطريق، وبعد الأكل يحضرون إلى المسجد لصلاة العشاء وصلاة التراويح، وهذه تقام بأئمة كثيرين ينيفون على الخمسين، فكل كبير له ولأتباعه إمام، والنساء لهن إمام واحد، والأئمة إما من الشبان الذين حفظوا القرآن أومن علمائهم، وأمام كل إمام شمعدانان بكل شمعتان تصرف من خزينة الدولة، ويتقاضى هؤلاء الأئمة مرتباً من الدولة آخر رمضان أجراً لهم على إمامتهم، وسراة البلدة يوزعون الثياب البيض على الفقراء والمساكين غب الصيام، وعيد الفطر عندهم أربعة أيام يتزاورون فيها جميعاً لكل جهة يوم مخصوص يزورون فيه أهالى الجهات الباقية، ويقدم للزائرين الحلوى فيأكلون وماء الورد فيتطيبون والعود الهندى فيتبخرون ٠ ويقاد فى الحجرة النبوية ليالى رمضان من العشاء إلى إكمال صلاة التراويح أربعة عشر شمعداناً ذهبياً ٠٠٠ !



الجهة الشرقية للحرم المكى والكعبة المشرفة عام ١٣٠١م





الأمير «الملك» سعود يزيح الستار عن الباب الجديد للكعبة عام ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م

جداريات الحج.. توثيق شعبى لرحلة روحية





جداريات الحج.. هى تسجيل لرحلة روحية مقدسة، عبر الزمان والمكان، وهى من أكثر دلالات التعبير الفطرى فى الإبداع الفنى الشعبى، وهذه الجداريات المتعلقة بفريضة الحج تنتشر فى كثير من البلاد العربية، لها نفس الرموز، وتتشابه فى العناصر والوحدات الزخرفية، ويعود هذا . بطبيعة الحال . لوحدة الموضوع وهدفه وشعاره بين المسلمين.



وتتميز جداريات الحج فى مصر بالخصوصية، فهذه الجداريات تسجل لحظات مهمة من حياة الإنسان.. تقاليد تضرب بجذورها إلى عصور سحيقة، حيث تزخر جدران المعابد والمقابر بمدونات ورسومات ونقوش رائعة تسجل جوانب من تاريخ مصر القديمة.. من إنتصارات حربية وإحتفالات قومية وتفاصيل من الحياة اليومية.

الرمز فى التصوير الشعبى

يعتبر الرمز من أهم عناصر الرسم الشعبى، إنه موجود فى معنى ومضمون وموضوع اللوحة، فنادراً ما نرى عملاً تشكيلياً شعبياً إلا والرمز يمثل قيمته، ويقربه من ذوق العامة.

إنه من الناحية الفنية لغة تشكيلية يستخدمها الفنان للتعبير عن أحاسيسه وإنفعالاته نحوكل ما يهز مشاعره من أفكار ومعتقدات، وكلما تعرفنا على تلك اللغة وأجدنا تفسيرها، أصبحنا أكثر قدرة على فهم ودراسة الفنون الشعبية.

إنه الوحدة الفنية التى يختارها الرسام من محيطه لكى يزين بها إنتاجه الفنى، ويكسبه طابعاً خاصاً، بشرط أن يكون الرمز محملاً بقيم المجتمع الثقافية والفكرية والدينية.

والمسلمون والعرب أعطوا الرموز أهمية كبرى، وإعتنوا بها عناية دقيقة، لكونها تتصل بحياتهم التأملية أحياناً أخرى، فهم أولوا الرؤى والإشارات والأحلام تأويلاً رمزياً، وإستمدوا تفسيراتهم لها من القرآن الكريم.

فالرموز واضحة فى كل مكان. فى أية مدينة إسلامية، ويتم تخطيط الحياة فيها بالطريق الرمزى. إبتداء من نداء المؤذن وإنتهاء بالشوارع التى تغص بالناس أيام الجمعة، والأماكن المقدسة، والجوامع.

حتى الكتابة والزخرفة العربية أيضاً هى رمزية، بما تحمل من معانى العبادة، ففى مثل هذه اللوحة نرى أن عملية تصوير الكعبة والبراق والحج والمساجد والأئمة ليست هى غاية بحد ذاتها، بل إن الهدف هوتمجيد ما تمثله هذه الصور من إيمان بالله الواحد،ورسوله، وكتابه، وملائكته، واليوم الآخر.

أى إن هذه الرسوم تحولت فى المفهوم الشعبى إلى رموز دينية مقدسة، تعلق فى المنازل والمساجد..

أجدادنا تعاملوا مع هذه الصور، على أنها مقدسة لا تدنس أبداً، فكانوا يقبلونها ويحفظونها فى أماكن طاهرة، كى يكسبوا رضى الله عز وجل.

وإذا إستعرضنا بعض الرموز، فسنجد أن النخيل فى التصوير الشعبى رمز قديم يدل على الإنتاج والوفرة، رسمه الفنان من جذع بسيط وبعض الوريقات، إنه إختصار لمعان قديمة، ومعتقدات شعبية تدل على أن هذا الرمز يعنى الإزدهار والخصب، فاستخدمه الرسام فى أعماله بذات المعنى، وقيمة النخيل فى الوسط الشعبى ليست نابعة من فراغ، إنما لها خلفية دينية وجذور تاريخية قديمة.

ففى الإسلام ذكر النخيل ٢٠ مرة فى القرآن الكريم، والمعجزة القرآنية فى سورة «مريم» أعطت للنخلة إحتراماً بالغاً عند المسلمين والعرب، وأصبحت رمزاً شائعاً، كيف لا والخالق خصها بكل هذا التقدير..

و«العصفور الأخضر» الذى نراه فى الرسوم الشعبية، والذى يعتبره الناس فألاً حسناً، إنما يرجع إلى أسطورة تعتبر مرجعاً للأساطير القديمة.

و«الحمامة وغصن الزيتون» رمز السلام، وأقدم ذكر للحمامة يعود إلى قصة الطوفان، عندما أرسل نوح الغراب للبحث عن بر الأمان، ولكنه طار ولم يعد، ثم أرسل الحمامة فعادت تحمل فى منقارها غصن زيتون، عندئذ أدرك نوح أن الماء قد إنحسر وأن شاطىء السلام بات قريباً.

و«الطاووس» المستوحى من الفنون الهندية، إستخدم فى المنسوجات الإسلامية، رمز يدل على السعادة، لهذا رسم بين الزهور ولون بألوان زاهية، وكتب إلى جانبه: (السعد القايم والعز الدايم)، وعلق فى غرف العرسان !

و«الهلال» رمز إسلامى كثيراً ما ظهر فى الصور الدينية، وهويدل على التفاؤل، فالمسلمون يتفاءلون بهلال أول الشهر، (ويحددون مناسباتهم الدينية على ولادة الهلال)،وتقويمهم الهجرى مقسم على أساس السنة القمرية.

الفنان الشعبى إستوحى هذين الرمزين فى لوحاته، ووضعهما فى أعالى المآذن، وتجدر الإشارة فى أن الهلال والنجمة موجودان فى الرايات الرسمية لبعض الدول الإسلامية، كعلم تونس الوطنى، وكذلك الجزائر وموريتانيا..

إضافة لهذه الأشكال الرمزية، ظهرت نماذج أخرى فى الرسوم الشعبية، كان لها أكثر من معنى ومدلول!

فقد إهتم الرسام الشعبى بالوسيلة التى كلفت بحمل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على ظهرها من مكة إلى القدس ليلة المعراج، حيث قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾.

ورغم أن الآية لم تأت على وصف أوتسمية لتلك الوسيلة، فإن ثمة إتفاقاً قد أجمع عليه من تناولها بالبحث، أوسعى إلى تصويرها، لا تخرج بها عن كونها دابة، أول ما يستوحيها رأس إنسان كرمز للتفكير وعلوالشأن بين الكائنات الحية، وجسد حيوان قوى يدفع بخطاه إلى أقاصى أطرافه،وجناح طائر تعبيراً عن سرعة الحركة والتنقل. هذه الدابة هى «البراق»..

هذا الوصف للبراق نسجه الخيال الشعبى صوراً متشابهة فى البلاد العربية، فكانت رسوماً لفرس أبيض له وجه آدمى عليه تاج كرمز للسمووالرفعة والفكر، وله جناح طاووس ملون بأبهى الألوان، (والطاووس ملك الطيور، والفرس أجمل الحيوانات)، هذا الإيجاز لرسم البراق وشمل العناصرالرفيعة من كل فصيلة من المخلوقات، (البشر والحيوان والطير) كدليل على أهمية البراق بالنسبة للوجدان الشعبى.

الدابة ظهرت فى اللوحات تطير بين المسجدين الحرام والأقصى، ورسمت أيضاً الكعبة الشريفة باللون الأسود، كتب فوقها «بسم الله الرحمن الرحيم» وتحتها ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾، وفى أسفل اللوحة إلى جانب صورة المئذنة كتب "البراق النبوى الشريف"!

ومثلما إهتم الفنان الشعبى برسم «الحصان» و«الفارس» فقد إهتم أيضاً برسم الإبل، ويعود هذا الإهتمام للقيمة الكبيرة التى يحتلها هذا الحيوان يشرب لبنها فى حالة ندرة الماء، ويأكل لحمه ويشيد من جلده

الخيمة، ويرى البعض أن الجمل كان من العوامل الرئيسية التى سهلت الفتوح العربية والإسلامية، نظراً لصبره على التعب والعطش، لهذا لقبوه بـ(الصابر) و(سفينة الصحراء).

أما فى الأمثال الشعبية العربية فنرى أن رمز الجمل إقترن باسم الرجل الصبور الذى يتحمل المشقات والتعب، فالناس يصفونه بـ(جمل المحامل)، والمرأة تشبه زوجها بالجمل فتناديه (يا جملى) أى يا من يساعدنى على الشدة والمصاعب !

هذا وتأكيداً لأهمية الجمل ومنزلته الرفيعة فى الإسلام، نرى بعض الناس يعتقدون بأنه «نطق بين يدى النبى، صلى الله عليه وسلم، متحدثاً عن ظلم اليهودى له، ويعتقدون أيضاً أن الجمل هوالوحيد الذى يعرف الاسم المكمل للمائة من أسماء الله الحسنى» !

هذه المنزلة الرفيعة للجمل عززت مكانته عند الرسام الشعبى، فصوره فى لوحات متنوعة وفى أوضاع متعددة. ونلاحظ أنه إرتبط بمسألتين:

الأولى: مشاركته فى مراسم الحج حاملاً على ظهره المحمل.

الثانية: مشاركته فى مراسم الزواج حاملاً على ظهره الهودج والعروس

فى مصر

وترتكز روائع «جداريات الحج» فى مصر فى النوبة والصعيد والواحات، ويرجع معظمها إلى القرن الثامن عشر، هى غنية بالعناصر الفنية كالنخيل،والسفن والجمال، والأسود، أما تلك التى يعود تاريخها إلى أواسط هذا القرن، ورسمت على الجدران، فكانت عبارة عن أشكال نباتية، وصور لمساجد ومآذن وكتابات ترحيبية بالحجاج، ووسائل نقلهم، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائرات والطيور، والخيل والكف، والرموز

العربية والفرعونية، والزهور، والمسجدين: الحرام والنبوى، ويقوم برسم هذه المصورات الجدرانية أصدقاء الحجاج، أورسامون يصورون لقاء أجر.

الكتابات والزخارف

أما بالنسبة للكتابات التى ترافق الرسوم، فيمكن أن نقسمها إلى ثلاث مجموعات: آيات قرآنية وأحاديث نبوية . أقوال دينية . كلمات ترحيبية. ومثال لذلك: البسملة «بسم الله الرحمـن الرحيم»، ترد فى مستهل كل سورة قرآنية. «ولله على الناس حج البيت من إستطاع إليه سبيلاً» آل عمران ٩٧ «. «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يآتين من كل فج عميق» الحج ٢٧ «.

«من زار قبرى وجبت له شفاعتى « حديث نبوى شريف.

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» حديث نبوى.

«شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» من أصول الدين الإسلامى.

« حج البيت من إستطاع إليه سبيلاً « من أصول الدين الإسلامى.

«صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» قول دينى.

«حج مبرور، وذنب مغفور، وسعى مشكور» قول دينى.

«هذا من فضل ربى.. ألف مبروك يا حاج.. أهلاً وسهلاً بالحاج، الحمد لله عالسلامة.. إلى ما هنالك من كلمات ترحيبية...».

إضافة للتكبير «الله أكبر» ودعوة الخالق «يارب.. يا الله...».

ومن أهم الرسوم المتعلقة بالحج صورتا الكعبة، والمحمل، فالأولى رسمت على شكل مربع أسود، تحيط بها المساجد والحجاج، مزينة بالزخارف والآيات القرآنية. والثانية رسم على شكل مستطيل وهرمى، محمولاً على ظهر جمل، ترافقه البيارق والسناجق، مزخرفاً بالألوان

والأشكال، ومزيناً بالكتابات الجميلة مثل «ما شاء الله»، «يا حافظ»، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

زخارف مشتركة مع كتابات عربية، تؤلف فيما بينها عملاً تشكيلياً موحداً، هذا الأسلوب فى المزج بين الزخارف والكتابات، أمر كان معروفاً فى الفن الإسلامى، فبين الخط العربى والزخرفة علاقة حميمة، فهما بنيا على أساس فلسفى وأيديولوجى واحد، وإنطلقا من نفس الأسس الجمالية التى إرتكز عليها الفن التجريدى الإسلامى.

والكتابة الشعبية، هى التى نشاهدها فى اللوحات الدينية والشعبية، وعلى عربات الباعة، والجدران فى مواسم الحج، وتكون عادة أحاديث وأقوالاً دينية وعبارات وأمثالاً شعبية.

الكتابة فى الرسم الشعبى، عنصر أساسى من عناصره التشكيلية، فقلما نجد لوحة فى الوطن العربى لا تكون الكتابة حاضرة فيها بكل أنواعها، ومعانيها، والسبب أن الرسام حينما يسجل رموزه، فكأنما يتحدث من خلالها، وحينما يكتب فكأنه يرسم، أى أنه لا يفصل فى الشكل بين الرموز والكتابة، إنه يجمع بينهما حرصاً منه على وضوح عمله.

لقد إهتم الفنان الشعبى بالكتابة والخط، لأنه جزء من تلك الحالة الإسلامية والعربية التى إهتمت بالخط العربى، وأدخلته ضمن عناصر فنونها الزخرفية.

الفنان الشعبى جزء من هذه الأمة المسلمة التى توازى بين الحبر ودم الشهداء والتى تعتبر أن الخط تطور لأجل القرآن، فهذا بشر فارس يقول «ذاع القرآن فإنتشر الخط».

إذن الخط العربى عند المسلمين هوفى ذروة الشرف والتقدير، لأنه لغة

القرآن، ولأن الله أقسم به ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ وفى الأثر أول الخلق القلم، ولأن الإمام علياً خليفة المسلمين قال فيه: "الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً ".

إدوارد لين «ونزلة المحمل» !

المستشرق البريطانى الأشهر «إدوارد لين» والذى إكتسب معرفة أكبر بالمصريين ونظرة أعمق وأشمل عن تقاليدهم المتوارثة وتفاصيل حياتهم اليومية، خلال عودته الثانية إلى القاهرة فى الفترة ١٨٣٣ - ١٨٣٥م، وتزيا بالزى الشرقى وإختلط بالمسلمين فى المساجد والأسواق والحارات.. وبعد أن تحدث عن «المحمل» ومراسم إستقباله فيما كان يعرف بـ«نزلة المحمل».. قال:«... ويزين المصريون مدخل منزل العائد من الحج قبل نحوثلاثة أيام من وصوله: فيلونون الباب والحجارة باللونين الأحمر والأبيض، وإن كانت الحجارة من الآجر فتزين بالطريقة عينها بخطوط أفقية عريضة من اللونين الأحمر والأبيض، ويصبغون أحياناً الأشجار والجمال باللون الأخضر أوالأسود أوالأحمر أوغيرها من الألوان بطريقة بدائية، وقد يوجه الحاج كتاباً مسبقاً إلى ذويه يطلب منهم إعداد مثل هذه الترتيبات، ويقيم الحاج فى الليلة التالية لوصوله حفلة لأصدقائه تعرف «بحفلة النزلة»، ويتدفق الضيوف عليه مهنئين مرحبين بعودته ويقولون له: «صل ليغفر لى»، ويبقى فى منزله عادة أسبوعاً كاملاً بعد عودته، ويقيم فى اليوم السابع حفلة أخـــرى لأصحابه تعرف «بحفلة السبوع»، وتستمر هذه الحفلة طوال النهار والليلة التالية، وتنتهى بختمة أوذكر فى المساء»!

فهذه الجداريات الجميلة يرسمها فنانون شعبيون فى مهارة فطرية إبداعية، وقد يتطوع بالرسم والزخرفة أحد أقارب الحاج أومن أصدقائه..

آن باركر . . وتجربتها فى مصر

فى عام ١٩٩٥م، قامت الأمريكية «آن باركر Ann Parker" بالتسجيل الفوتوغرافى لجداريات الحج بالإشتراك مع زوجها "آفون نيل" فى كتاب بعنوان "Hajj Painting" .

وتفسير آن باركر إنبهارها الشديد برسومات الحج فى مصر، إلى ما تحمله تلك الرسومات من مهارة إبداعية ، وتنوع جميل سواء أكان ذلك فى المجتمعات الريفية على ضفاف النيل أم فى الدلتا أوعلى شاطىء البحر الأحمر أم فى داخل سيناء «لقد شد إنتباهى أول الأمر منظر منزل رأيته عبر نافذة القطار السريع فى أثناء سفرى من القاهرة إلى أسوان، فقد أثار هذا المنظر إعجابى الشديد بهذا الفن البسيط.. وحينما عرفت الدافع القوى خلف هذه الرسومات، لم أستطع مقاومة طموحى فى أن أقدم للعالم الخارجى ما إعتقدته فى قوة تعبير هذه الرسومات،

ذات الطابع غير العادى والتاريخى، علاوة على قدم هذا الفن الشعبى.

ورسومات الحج هذه . كما يطلق عليها . هى فى الواقع محاولة لتذكر الحج نفسه.

وتشرح آن باركر تجربتها التى عاشتها: «لقد إتسع مجال بحثى عن هذا الفن فصورت فيلماً بعد فيلم، ووجدت مادة غنية تفوق كل توقعاتى، إن تسجيل تقاليد شعبية حية، هوفى حد ذاته أمر مثير وبخاصة كلما إزداد الإنسان فهماً لموضوعه، وتعمقاً فى تتبع ذلك، وبخاصة أن هذا الفن هوإبداع مستمر.

ففى كل مرة أعود فيها إلى مصر أجد رسومات جديدة رسمها فنانون مجهولون وعاديون».

وتستمر فى سرد تجربتها وملاحظاتها فتقول: لقد لاحظت عبر السنين فنانين غير مدربين وكيف طوروا أسلوبهم الشخصى، مع كل موسم من مواسم الحج. وتقول آن باركر بكل مشاعر المودة والصدق. «إننى كلما غادرت مصر إشتد بى الحنين إلى العودة إليها وأن أعيش تجاربى مرة بعد مرة.. رؤيتى لهذه الأعمال الفنية هى: بالنسبة لى أكثر متع حياتى كمصورة فوتوغرافية، ومع كل رحلة تتضاعف مواد أرشيفى من هذه الأرض المثيرة للإهتمام» !

بل تذكر أنها كلما راجعت ملفاتها، ملفاً بعد ملف، بما تحتوى هذه الملفات من شرائح ملونة، تبين لها بوضوح أكثر من قبل، أن رسومات الحج التلقائية تحتوى ليس فقط على فن شعبى دينى، بل على فن تقليدى، كامل الإزدهار. «إن كثيراً من ذكريات حياتى ترتبط بشكل خاص عن الأشياء غير العادية فى الفن الشعبى والعمارة، وإهتمامى الخاص يكون فى تسجيل كيف يعبر الفنانون البسطاء عن مجريات الحياة، وعلى الرغم من إعجابى الشديد بالفن الكلاسيكى والعمارة، فإن التى للتصوير تهتم بشدة بإغتنام الإبداعات الأقل صقلاً والأكثر تلقائية، إننى أشعر بسعادة أكبر حينما أسجل تعبيرات الفنانين البسطاء» !

وبعض هؤلاء الفنانين يقومون به متطوعين، ويبدأون عملهم بدهان واجهة البيت أوالحائط الذى سيرسمون عليه ثم ينتظرون حتى يجف الدهان.

وقد يعد بعضهم رسماً تحضيرياً قبل أن يبدأ فى رسم الواجهة، وعادة يستخدمون سلماً للصعود عليه لرسم أعلى اللوحة على واجهة البيت، وقد تختلف عناصر الرسم، ولكنها كلها تعبر عن موضوع رحلة الحج، سواء فى رسم وسائل الإنتقال أوزيارة الكعبة ومسجد الرسول، علية الصلاة والسلام، فى المدينة المنورة.

وبعض هؤلاء الفنانين يميل أحياناً إلى الجانب الخيالى فى الرحلة، وهوما يضفى على التعبير الفنى الشعبى طابعاً فطرياً جميلاً، كما تتضمن جداريات الحج عناصر من تجربة الرحلة، من وسائل الإنتقال الحديثة والتقليدية مثل الطائرة والسفينة، وما زالت بعض الجداريات تتضمن رسم «الجمل»، على الرغم من أن رحلات الحج حالياً لا تستخدم الجمال كوسيلة للإنتقال !

ويقول الدكتور صفوت كمال: إن بعد هؤلاء الفنانين الفطريين عن الأساليب الفنية سواء من حيث تحديد المنظور، أوإخضاع عملهم لقواعد التعبير الفنى الكلاسيكى، فإن عملهم هذا يقدم رؤية فنية خاصة، ذات مساحات ملونة بألوان طبيعية بشكل تعبيرى وكاريكاتيرى أحياناً، ومن خلال بُعد واحد دون خلفية وبغير إهتمام للتوازن أوالإتساق والتناسق، وكلها فى النهاية تعطى شكلاً خاصاً، له دلالته الفنية المميزة لهذه الرسومات الجدارية.

إن «جداريات الحج» هى دعوة جميلة لإعادة النظر فيما تتضمنه الحياة المصرية من جماليات بسيطة، شائعة، تعبر فى صدق عن إدراك الإنسان للجمال والقدرة على التعبير عن هذا الجمال.. كما عبر . بشكل فطرى . عن رؤيته وخيالاته ومعتقداته فى إبداعات فنية بسيطة لها مذاق خاص !



معسكر المحمل المصرى عام ١٩٠٨م



رمي الجمرات عام ١٩٣٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

استلام وتسليم كسوة الكعبة الشريفة لعام ١٣٨٠ هجرية

[illegible] يوم الجمعة [illegible] ذي القعدة سنة ١٣٨٠ هجرية الموافق ١١ مايو ١٩٦١ [illegible] [illegible]

[illegible] وزير الأوقاف [illegible] الوزارة . [illegible] [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] وسلمنا [illegible] عبد [illegible] الشيبي [illegible]

[illegible] [illegible] كسوة الكعبة الشريفة [illegible] الكسوة الشريفة [illegible]

هذا العام لبيت الله الحرام كما يلي :

١ – ثمانية أحمال وأربعة كرانيش [illegible] مزركشة [illegible] بالمخيش الفضة البيضاء والمخيش [illegible] [illegible]

بالذهب [illegible] على حرير الأطلس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

أربعة [illegible] الكرانيش سالفة الذكر مركبة [illegible] على ثمانية أحمال من الحرير الأسود

[illegible] بالآيات المعروفة [illegible] الأحمال الثمانية [illegible] بالبفتة البيضاء [illegible]

[illegible] من النوار القطن البيضاء [illegible] هذه الأحمال من [illegible]

[illegible] المذكور [illegible] ثوب على [illegible] ربعة عشر [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

٢ – ستارة باب بيت الله الحرام [illegible] بالبرقع وهي مزركشة أيضاً بالمخيش سالف الذكر [illegible]

على حرير الأطلس [illegible] وأخضر [illegible] ومبطنة بالبفتة البيضاء [illegible]

الحرير الأصفر [illegible] شرابات كبيرة من الحرير الأسود والقصب والمخيش [illegible]

[illegible] بالذهب واثنا عشرة شرابة صغيرة من القطن [illegible] الأحمر والقصب

والكنتير [illegible] والأصفر والمخيش [illegible] الأصفر ، واثنا عشرة [illegible]

[illegible] على الحرير الأحمر بالمخيش الفضة [illegible] ومبطنة بالأطلس الأحمر [illegible]

المذكورة مكونة من أربعة أجزاء متصلة ببعضها وهي العتبة [illegible] [illegible]

٣ – ستارة باب [illegible] بيت الله الحرام وهو المعروف بباب التوبة داخل البيت الحرام وهي من الحرير [illegible]

الأسود والأخضر والأحمر ومزركشة بالمخيش [illegible] ومبطنة بالبفتة البيضاء [illegible]

القطن [illegible] الحرير الأخضر .

٤ – كيس مفتاح الكعبة المشرفة وهو من الأطلس الأخضر الحرير ومزركشة بالمخيش الفضة

المذكور [illegible] وله شرابات من الذهب الفضة الأصفر والمخيش [illegible] والكنتير [illegible]

الأصفر ، [illegible] أحبال [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ، وهذه الأحمال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهرة ، [illegible]

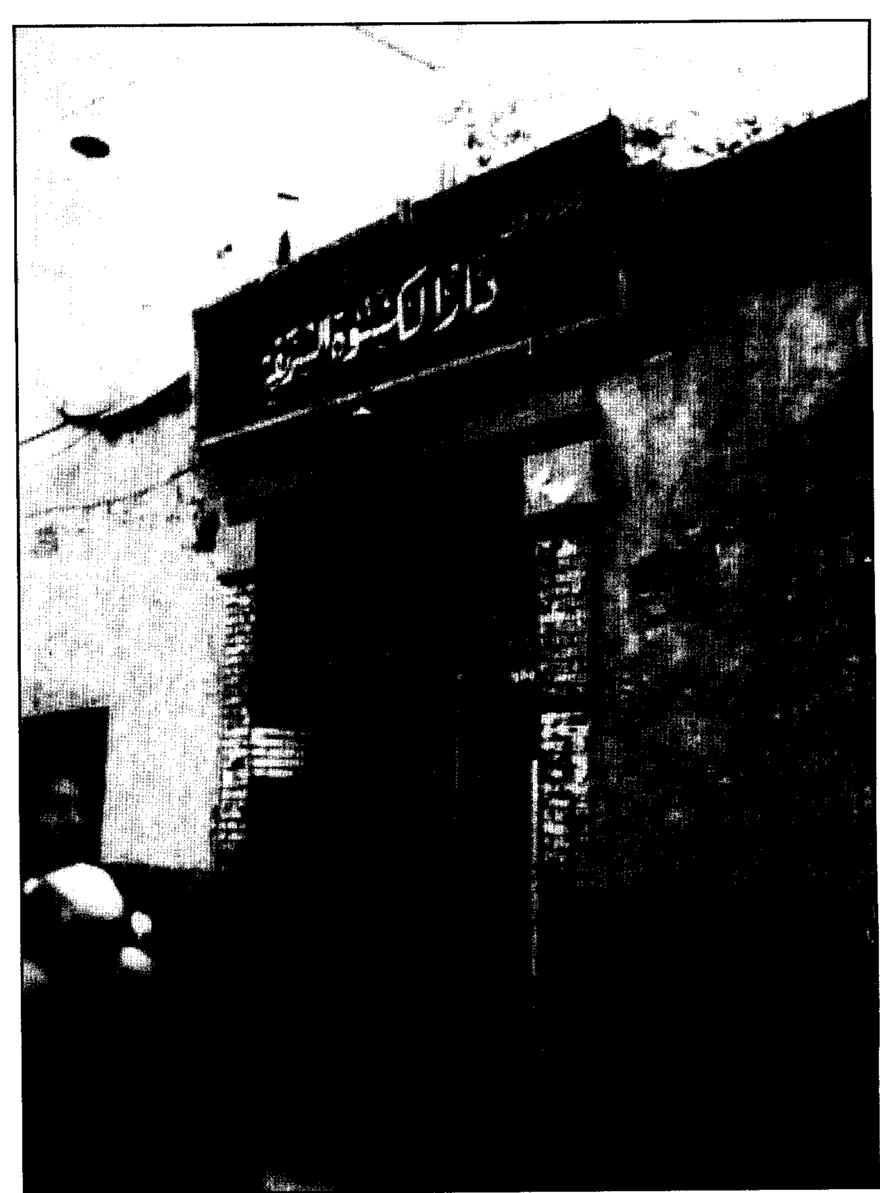
[illegible] الأسود [illegible] لإصلاح ما يلزم من الكسوة الشريفة [illegible] العام ، [illegible]

[illegible] المزركشة ، [illegible] الكسوة الشريفة [illegible] [illegible]

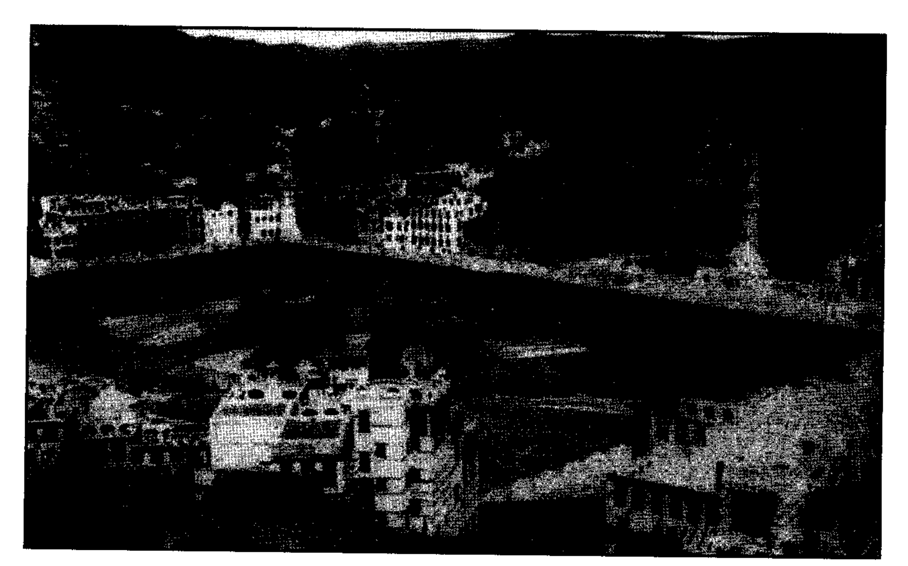
[illegible] [illegible] [illegible] من الفضة النقية [illegible] [illegible]

[illegible] هذه الأحمال والمزركشات والأحبال [illegible] [illegible]

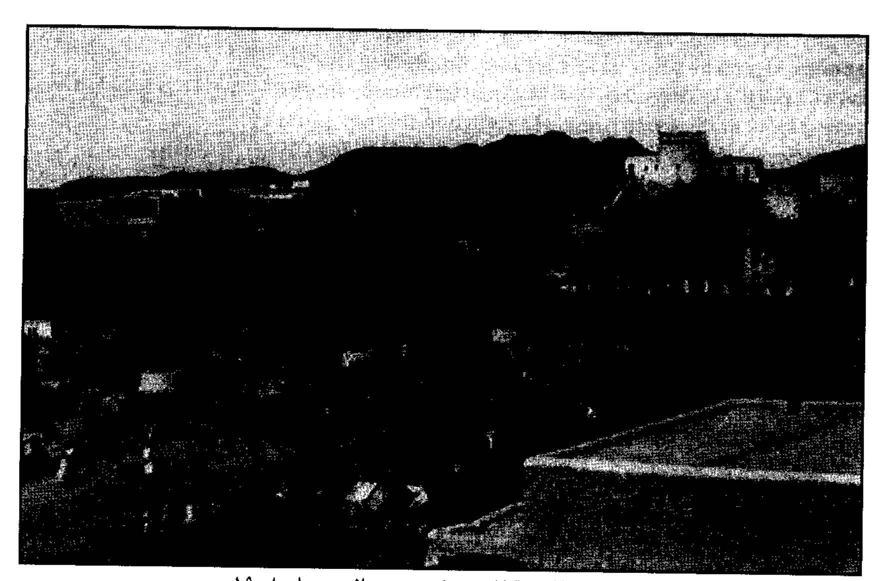
الإشهاد الرسمى بتسليم كسوة الكعبة والصرة عام ١٣٨٠هـ



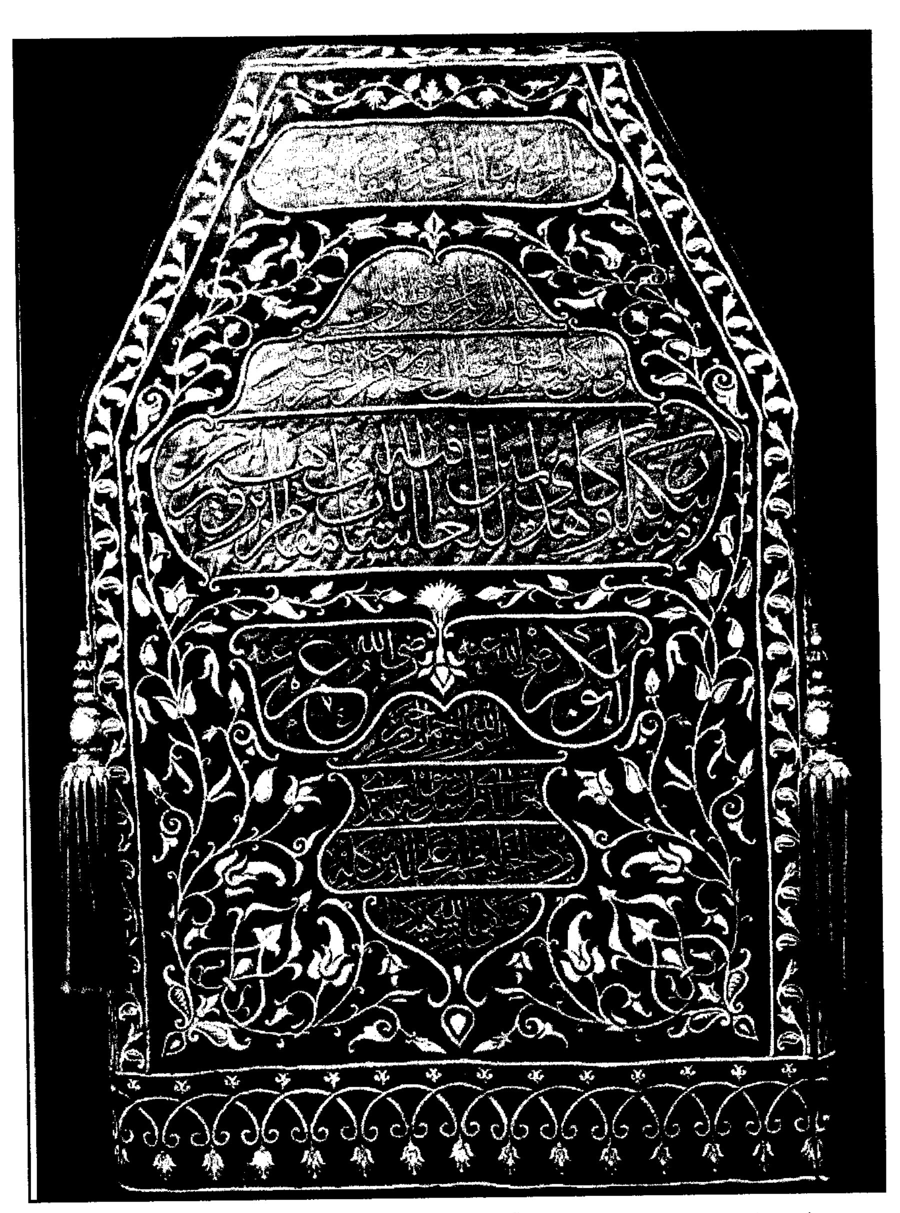
واجهة دار الكسوة الشريفة بشارع الخرنفش بالقاهرة



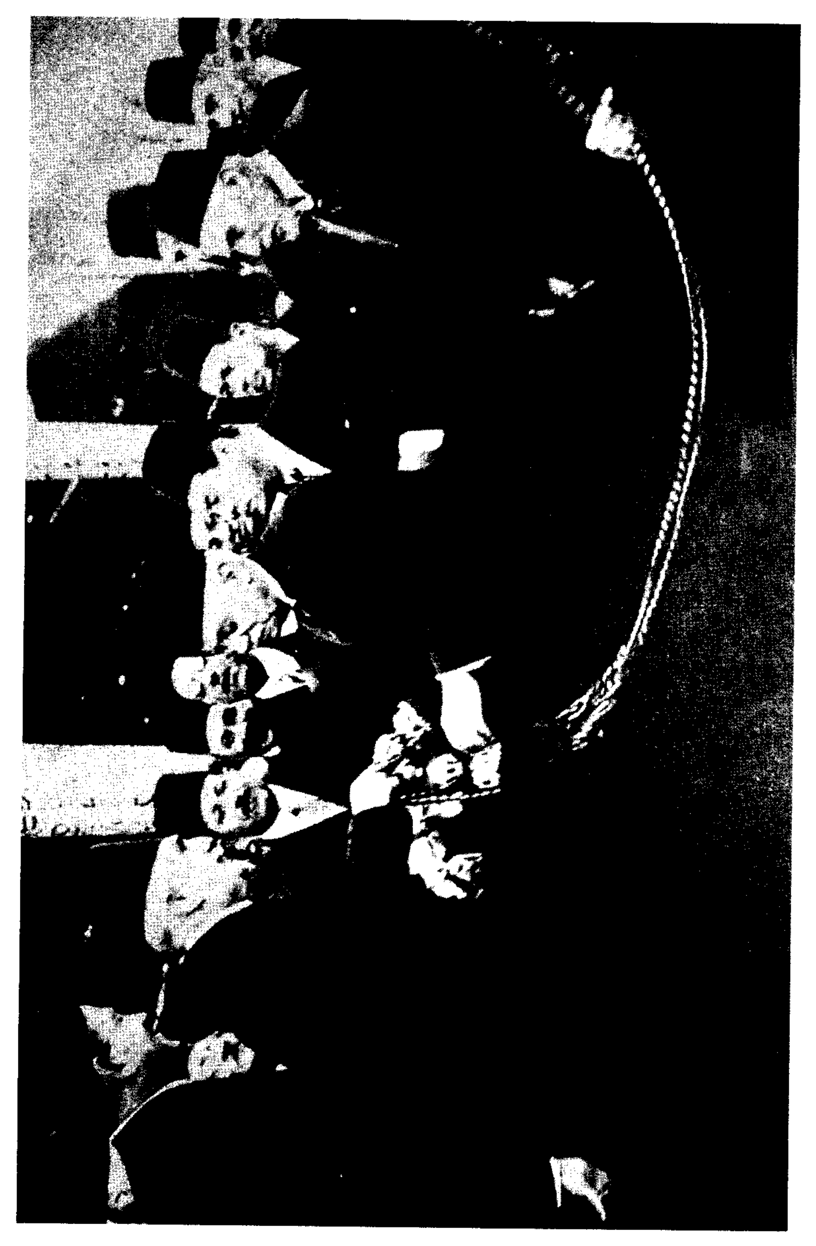
مشعد عام للحرم المكى عام ١٣٤٣هـ



حى المناخة بالمدينة المنورة فى موسم الحج عام ١٩٠٨م



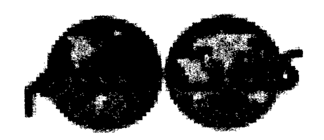
كسوة المحمل المصرى وتظهر عليها آيات قرآنية منسوجة «مقصبة» بالخيوط الحريرية



الأمير محمد علي توفيق باشا يسلم مقود المحمل إلى محمود بسيوني أمير الحج المصري عام ١٩٣٢م

فهرس

صدر عن



- الحريم والسلطة سلمى قاسم جودة أغسطس ٢٠٠٥
- نجيب محفوظ والإخوان المسلمون مصطفى بيومى سبتمبر ٢٠٠٥
- المسلمون فى الصين د. عبد العزيز حمدى أكتوبر ٢٠٠٥
- ملكة تبحث عن عريس رجاء النقاش نوفمبر ٢٠٠٥
- الحب والضحك والمناعة د. عبد الهادى مصباح ديسمبر ٢٠٠٥
- عبقرية المسيح عباس محمود العقاد يناير ٢٠٠٦
- كتاب الحب يسرى الفخرانى فبراير ٢٠٠٦
- كلمات للضحك والحرية على سالم مارس ٢٠٠٦
- قضية سيدنا محمد محمود صلاح إبريل ٢٠٠٦
- فوبيا الإسلام فى الغرب سعيد اللاوندى إبريل ٢٠٠٦
- زمن سيدى المراكبى مجموعة قصص قصيرة مايو٢٠٠٦
- حكاية ابن سليم على عيد يونيو٢٠٠٦
- فكرة مصطفى أمين أغسطس ٢٠٠٦
- ثقافة المصريين فؤاد قنديل سبتمبر ٢٠٠٦
- احجز مقعدك فى الجنة جمال الشاعر اكتوبر ٢٠٠٦
- إسكندرية شرقًا وغربًا، عمدة عزبة المغلفين محمد محمد السنباطى، رضا سليمان نوفمبر٢٠٠٦
- مع ابن خلدون فى رحلته د. خالد عزب، محمد السيد ديسمبر ٢٠٠٦
- الراقصون على النار محمود النواصرة يناير ٢٠٠٧
- تأملات فى العقل المصرى طارق حجى فبراير ٢٠٠٧
- أمريكا فى مفترق الطرق د. حمدى صالح نوفمبر ٢٠٠٨
- كيف تكتب السيناريومحمد السيد عيد نوفمبر ٢٠٠٨
- مصطفى محمود.. سؤال الوجود د. لوتس عبد الكريم ديسمبر ٢٠٠٨
- زائرة الأحد عبد الرشيد الصادق محمودى يناير ٢٠٠٩

- لماذا؟ شريف الشوباشى فبراير ٢٠٠٩
- الريفى يوسف أبورية مارس ٢٠٠٩
- زمن جميل مضى جابر عصفور أبريل ٢٠٠٩
- أيام مع الولد الشقى سامى كمال الدين منتصف أبريل ٢٠٠٩
- نزول النقطة جمال الغيطانى مايو٢٠٠٩
- حكايات من بلاد غربة فتحى الجويلى منتصف مايو٢٠٠٩
- ما ليس يضمنه أحد خيرى شلبى يونيو٢٠٠٩
- تنوير طه حسين سامح كريم منتصف يونيو٢٠٠٩
- اللحظات الأخيرة فى حياة جمال عبد الناصر عمرو الليثى يوليو٢٠٠٩
- المغنى والحكاء فاطمة ناعوت منتصف يوليو٢٠٠٩
- مبروك لولوحامل سامى هاشم أغسطس ٢٠٠٩
- رحلتى إلى الله عادل حمودة سبتمبر ٢٠٠٩
- ثقافتنا بين الوهم والواقع طارق حجى أكتوبر ٢٠٠٩
- حاجز الخوف محمود النواصره نوفمبر ٢٠٠٩
- فتيات للفرجة فقط! عزت السعدنى منتصف نوفمبر ٢٠٠٩
- المعانى فى الأغانى سليمان الحكيم ديسمبر ٢٠٠٩
- المتعاقدون – تحية وداع للحمير فكرى الشربينى داود محمد البيومى منتصف ديسمبر ٢٠٠٩
- أسوق الغمام أحمد الشهاوى يناير ٢٠١٠
- المصريون الجدد سلمى قاسم جودة منتصف يناير ٢٠١٠
- يوسف وهبى.. السيرة الأخرى لأسطورة المسرح د. لوتس عبد الكريم فبراير ٢٠١٠
- تصبح على خير أيها الحزن سهام ذهنى مارس ٢٠١٠
- عكارة الجسد صلاح عبد السيد ابريل ٢٠١٠
- عمارة الأضرحة محمد عبد السلام العمرى مايو٢٠١٠
- توته توته بدأت الحدوته سماح أبوبكر عزت يونيو٢٠١٠
- الشوارع فى الرواية المصرية هالة فؤاد يوليو٢٠١٠
- النبى محمد فى الأدب المصرى مصطفى بيومى أغسطس ٢٠١٠
- فى الليل تتعدد الظلال محمد جبريل أكتوبر ٢٠١٠
- خلف الستار – وجه آخر لأفغانستان خالد منصور نوفمبر ٢٠١٠
- كنارى أحمد الخميسى ديسمبر ٢٠١٠
- كلام فى الكورة خالد توحيد يناير ٢٠١١
- اتصل فى وقت لاحق زينب عفيفى منتصف يناير ٢٠١١

- وسريرهما أخضر محمد البساطى فبراير ٢٠١١
- عشرة طاولة مع الملك فاروق ياسر قطامش مارس ٢٠١١
- كونشيرتوميدان التحرير عيد عبد الحليم ابريل ٢٠١١
- مصر تولد من جديد د. أحمد تيمور منتصف ابريل ٢٠١١
- أوراق من يناير د. عمروعبد السميع مايو٢٠١١
- أسامة أنور عكاشة حسنات الحكيم يونيو٢٠١١
- مكتوب على جدران التوك توك د. كمال سالم عوض يوليو٢٠١١
- نجوم العصر الذهبى لدولة التلاوة د. نبيل حنفى محمود أغسطس ٢٠١١
- عالم بلا نساء عزت السعدنى سبتمبر٢٠١١
- لماذا ثار المصريون؟ أحمد عثمان أكتوبر ٢٠١١
- ليدى من وسط البلد وليد الزهيرى نوفمبر ٢٠١١
- نساء من الميدان إيمان بيبرس ديسمبر ٢٠١١
- أقنعة نجيب محفوظ. د خالد عاشور يناير ٢٠١٢
- لمبه حمرا. حازم الحديدى فبراير ٢٠١٢
- رجل وإمرأة قصص واقعية تكشف أدق الأسرار. سمير عبدالقادر مارس ٢٠١٢
- المحاكمة.. تأملات فى حال الدنيا والعباد.. الهامى راشد أبريل ٢٠١٢
- وصفات لحياة أكثر سعادة .. أحمد عابدين مايو٢٠١٢
- الفتوة فى السينما المصرية.. ناهد صلاح يونيو٢٠١٢
- أربعون رواية ورواية يوليو٢٠١٢
- أحكام الصيام أغسطس ٢٠١٢
- صباح النعاع سبتمبر ٢٠١٢
- وثائق حرب أكتوبر أكتوبر ٢٠١٢

رقم الإيداع: ١٧١٩٨ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى I. S. B. N
978 - 977 - 08 - 1569 - 4